الفصل الثانى
الاستعارة وأنواعها

الاستعارة

الاستعارة ضرب من المجاز اللغوى علاقته المشابهة ، بين المستعار له ، والمستعار منه ، وهى تضفى على الأسلوب جمالا ، وبهاء .

وقد امتدحها الشيخ عبد القاهر ، وجلىّ قدرها ومنزلتها ؛ فبين أنها تبرز البيان فى صورة مستجدة ، تزيد قدره نبلا ، وتوجبُ له بعد الفضل فضلا . ومن مناقبها أنها تعطى الكثير من المعانى باليسير من اللفظ ، حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر ، وتجنى من الغصن الواحد أنواعا من الثمر ، وترينا الجماد حيا ناطقا ، والأعجم فصيحا ، والأجسام الخرس مبينة ، والمعانى الخفية بادية جلية [١] .

وقد ألمح الإمام الرازى إلى طرف من فوائدها فى الأسلوب ؛ فأشار إلى أنها تفيد على إيجازها المعانى الكثيرة ؛ فقد قال وهو يتكلم عن معنى إحياء الأرض بعد موتها فى قوله تعالى : ﴿ **وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا** ﴾ [البقرة : ١٦٤] .

يحصل للأرض بسبب النبات حسن ، ونضرة ، ورواء ، ورونق ؛ فذلك هو الحياة ، واعلم أن وصفه تعالى ذلك بالإحياء بعد الموت مجاز ؛ لأن الحياة لا تصح إلا على من يدرك ، ويصح أن يعلم ، وكذلك الموت ، إلا أن الجسم إذا صار حيا حصل فيه أنواع من الحسن ، والنضرة ، والبهاء ، والنشور ، والنماء ، فأطلق لفظ الحياة على حصول هذه الأشياء ، وهذا من فصيح الكلام الذى على اختصاره يجمع المعانى الكثيرة [٢] .

ويتسم تناوله لمبحث الاستعارة فى تفسيره بالاقتضاب ، والإجمال ؛ فقد

---

(١) أسرار البلاغة / ٣٠ بتصرف . (٢) التفسير الكبير ٢ ، ٢/ ٢١٩ – ٢٢٠ .

لاحظت أنه لم يعن بتحديد أنواع الاستعارات ، وتسميتها بأسمائها الخاصة بها، اللهم إلا نوعا واحدا ذكره باسمه ، وهو الاستعارة اللفظية .

فكان أحيانا يكتفى بأن يشير إلي أن فى الكلام استعارة ، دون أن يعين نوعها ، وأحيانا كان يطلق عليها كلمة مجاز فحسب ، مرسلة من غير تقييد ، وتارات يقيدها بمجاز المشابهة .

وقد يعبر عنها بالتشبيه تصريحا أو تلميحا ، ولا شك أنه حينئذ لا يقصد التشبيه الاصطلاحى ، ولكنه يقصد التشبيه الذي بنيت عليه الاستعارة . ولعل هذا الإجمال ، وعدم توفية الاستعارة حقها من البيان ، والإيضاح راجع إلى أنه كان يستفرغ جهده ، وطاقته ، فى توضيح معانى الآيات الكريمة ، واستخراج دقائقها ، وأسرارها ، فشغله هذا عن تفصيل القول في الاستعارة وغيرها من المسائل البيانية .

وإن كان من الأمانة أن أقول : إنه كان كثيرا ما يغرم بالإطناب في قضايا خارجة عن نطاق التفسير ، لعلها كانت أقرب إلى نفسه من القضايا البلاغية ، ولكنه استوفى بحث الاستعارة ، وذكر أنواعها ، وأسماء تلك الأنواع فى كتابه (نهاية الإيجاز ...) .

وكان صاحب الفضل ، والسبق فى تسمية بعض أنواع الاستعارات بأسمائها المعروفة بها ، إلى يومنا هذا ، وسأذكر هذا فى مواطنه من هذا البحث إن شاء الله تعالى .

وقد رأيت أن أبتدئ الحديث عن الاستعارة وأنواعها بالاستعارة اللفظية ؛ لقلة الحديث عنها بالنسبة إلى الاستعارة المعنوية من جهة ، ولعدم تشعبها إلى شعب كثيرة من جهة أخرى .

الاستعارة اللفظية :

كنت أود أن أعرض لموقف الإمام الرازى من الاستعارة اللفظية مباشرة دون تقديم ، أو تمهيد .

ولكنى وجدته متأثرا إلي حد كبير بما كتبه صاحب الكشاف عن هذه

الاستعارة ، وهو بدوره متأثر بكلام الشيخ عبد القاهر عن هذه الاستعارة فى (أسرار البلاغة) .

فرأيت أن من النافع المفيد أن ألقى الضوء أولا على كلام الشيخين الجليلين حول هذه الاستعارة ؛ ليكون الحديث عن موقف الإمام الرازى منها واضحا جليا .

أولا : رأى الشيخ عبد القاهر :

وسم الشيخ عبد القاهر الاستعارة اللفظية بأنها غير مفيدة ، وأنها قصيرة الباع ، قليلة الاتساع ، ومؤداها – كما يؤخذ من كلامه – أن تستعمل أسماء أعضاء الناس ، أو الحيوانات أو ما شاكل ذلك ، بعضها مكان بعض .

فقد وضع العرب « للعضو الواحد أسامى كثيرة ، بحسب اختلاف أجناس الحيوان ، نحو وضع الشفة للإنسان ، والمشفر للبعير والجحفلة للفرس ، وما شاكل ذلك من فروق ... فإذا استعمل الشاعر شيئا منها في غير الجنس الذى وضع له ، فقد استعاره منه ، ونقله عن أصله ، وجاز به موضعه ... »[1] .

وقد تتبعت كلامه حول هذه الاستعارة فى أوائل كتاب (أسرار البلاغة) وأواخره ، وتأملته مليا ، فوجدته لم يلتزم رأيا واحدا ، أو يختر وجهة معينة ، تجاه تلك الاستعارة ، بل تعددت نظراته إليها ، وتمثلت فى ثلاثة اتجاهات :

أولها : أنها غير مفيدة ؛ لأنها تعتمد على مجرد نقل لفظ ، مكان آخر ، ولا يقتصر الأمر على عدم إفادتها ، بل إنها تنقص المعنى ، وتضيع جزءا من الفائدة – فمثلا – قول الشاعر :

فبتنا جلوسا لدى مُهْرِنَا ننزع من شفتيه الصُّفَارا[2]

استعمل الشاعر فيه (الشفة) فى الفرس ، وهى موضوعة للإنسان ، وهذا لا

---

(١) أسرار البلاغة / ٢٠ – ٢١ .

(٢) الصُّفار ، والصِّفار : بضم (الصاد) المشددة وكسرها ، ما بقى فى أسنان الدابة من التبن والعلف للدواب كلها ، لسان العرب مادة (صفر) .

يفيد شيئا زائدا ؛ لأنه لا فرق من جهة المعنى بين قوله : من شفتيه ، وقوله : من جحفلتيه ، فكلا الاسمين يدل على العضو المعلوم ، فحسب .

وقد نقصت هذه الاستعارة الفائدة ؛ لأن اسم العضو إذا استعمل فيما وضع له أفاد العضو وصاحبه ، أما إذا استعير ، أفاد العضو وحده [1] .

ثانيها : أنها يمكن أن تكون مفيدة ، وإن اختلطت فى الظاهر بغير المفيدة، ويتأتى هذا عند قصد المشابهة بين المنقول له ، والمنقول عنه ، كقولهم فى ذم الرجل : إنه لغليظ الجحافل ، وغليظ المشافر ؛ لأنه كلام يصدر عنهم في مواضع الذم ، فصار بمنزلة أن يقال : كأن شفتيه فى اللفظ مشفر البعير ، وجحفلة الفرس، ومن ذلك قول الحطيئة :

قَرَ وْاجارك العيمان لما جفوته وقلص عن برد الشراب مشافره [2]

فإن الشاعر ، وإن كان يقصد نفسه بالجار ، فقد يجوز أن يقصد إلى وصف نفسه بنوع من سوء الحال ، ويعطيها صفة من صفات النقص ، ليتهكم بمن ضافه، ويؤكد ما قصده من رميه بإضاعة الضيف ، وإسلامه للضر ، والبؤس [3] .

فإذا أتى بهذه الاستعارة فى موضع العيب ، والنقص ، فلا شك فى أنها مفيدة معنوية ، وكذلك إذا جاءت فى موضع المدح ، كقول الأعرابى : كيف الطلا وأمه ؟ لأنه أشار إلى شئ من تشبيه المولود بولد الظبى [4] .

---

(١) أسرار البلاغة / ٢١ – ٢٢ (بتصرف) .

(٢) العَيْمان – العطشان إلي اللبن أشد العطش هامش أسرار البلاغة /٢٥ وينظر لسان العرب مادة (عيم) .

(٣) أسرار البلاغة / ٢٤ – ٢٥ (بتصرف) .

(٤) دخل هذا الأعرابى على أهلهٌ ، وهو جائع عطشان ، فبشروه بمولود ، وأتوه به ، فقال : والله ما أدرى آكله أم أشربه ؟ فقالت امرأته :

غرثان فار بكوا له .. ينظر أسرار البلاغة /٣٨ تحقيق هـ . ريتر .

والربيكة شئ من حساء ، وَأقط ، فلما أكل وشرب ، قال : كيف الطلا وأمه ؟ فأرسلها مثلا يضرب لمن ذهب همه ، وتفرغ لغيره ، والطلا بالفتح : ولد الظبى ساعة يولد ...

ينظر أسرار البلاغة تحقيق محمد رشيد رضا / ٢٥ – ٢٦ .

ثالثها : أنها لا تستحق أن تسمى استعارة ، يقول فى أواخر (أسرار البلاغة) : « واعلم أن الواجب كان ألاّ أعد وضع الشفة موضع الجحفلة ، والجحفلة فى مكان المشفر ، ونظائره التى قدمت ذكرها فى الاستعارة وأضن باسمها أن يقع عليه ، ولكنى رأيتهم قد خلطوه بالاستعارات ، وعدوه معدها ، فكرهت التشدد فى الخلاف ، واعتددت به فى الجملة ، ونبهت على ضعف أمره بأن سميته استعارة غير مفيدة ... »[1] .

وهكذا نرى الشيخ فى نهاية الأمر قد تنكر لهذه الاستعارة ، ورجع عنها ، وضن عليها أن تكون فى جملة الاستعارات .

وهنا يحق لنا أن نتساءل هل يشمل هذا الرجوع الصورة التى بنيت على المشابهة ، أو أنه خاص بالصورة التى تعتمد على مجرد النقل ؟

الذى أراه أن هذا الرجوع مقصور على الصورة التى تعتمد على مجرد النقل، أما الصورة التى تلاحظ فيها علاقة المشابهة ، فهى من صميم الاستعارة وخالصها ؛ لأن الشيخ عبد القاهر ما فتئ يؤكد أن الاستعارة تعتمد علي التشبيه أبدا[2] .

وفي نهاية استعراضى لرأى الشيخ أحب أن أسجل ملاحظة بدت لى بعد استقراء كلامه في الاستعارة اللفظية ، وهى أنه لم يمثل لها بشئ من القرآن الكريم، وهذا موقف يسجل له بالثناء ، والتقدير ؛ لأنه إذا لم يرضها لكلام البشر، فكيف يرضاها لكلام الله ، وهو المثال الأعلى في البلاغة ؟!

ثانيا : رأي الزمخشرى :

لم يضف الزمخشرى – رحمه الله – إلى ما قاله الشيخ عبد القاهر – جديدا، والجديد الذى نلمحه عنده أنه لا يرى بأسا في وجود هذه الاستعارة فى

---

(١) المصدر نفسه / ٣٤٤ – ٣٢٥ .

(٢) ينظر أسرار البلاغة / ٣٧ . وصور من تطور البيان العربى إلى أوائل القرن الثامن الهجرى ، للدكتور كامل الخولى / ١٨٤ .

القرآن الكريم فقال فقد قال فى قوله تعالى : ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ [الصافات: ٦٥]

« والطلع للنخلة ، فاستعير لما طلع من شجرة الزقوم من حملها ، إما استعارة لفظية ، أو معنوية ... » (١) .

والذى يظهر لى أن قوله : (... إما استعارة لفظية أو معنوية) يدل دلالة قاطعة على أنه يجعل احتمال وجودها فى الآية مساويا ، لاحتمال وجود الاستعارة المعنوية فيها .

وقال فى قوله تعالي : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ... ﴾ [النور : ٤٥] .

« .. فإن قلت : لِمَ سمى الزحف علي البطن مشيا ؟ قلت على سبيل الاستعارة كما قالوا فى الأمر المستمر : قد مشى هذا الأمر ، ويقال : فلان لا يتمشى له أمر ، ونحوه استعارة الشفة مكان الجحفلة ، والمشفر مكان الشفة ونحو ذلك ... » (٢) .

وقد رفض الدكتور محمد جلال الذهبى ما ذهب إليه الزمخشرى من تنظيره استعارة المشى للزحف على البطن باستعارة الشفة مكان الجحفلة ، والمشفر مكان الشفة ، وتساءل الدكتور الذهبى قائلا :

« ... ماذا يعنى الزمخشرى بكلامه هذا ؟ أيقصد ما قصده الشيخ من قبل وهو أن الاستعارة إذا وقعت فى اسم يكون اختصاصه بما وضع له من طريق أريد به التوسع فى أوضاع اللغة كوضعهم للعضو الواحد أسامى كثيرة بحسب اختلاف أجناس الحيوان نحو وضع الشفة للإنسان ، والمشفر للبعيرُ والجحفلة للفرس ... » (٣) .

---

(١) الكشاف ٣ / ٣٠٢ . (٢) الكشاف ٣ / ٨٠ ، وأسرار البلاغة / ٢٠ – ٢١ .

(٣) الفخر الرازى والبلاغة العربية / ٣٥٦ – ٣٥٧ .

وأضاف قائلا « إذا كان الزمخشرى يقصد ذلك ، فإنا لا نوافقه ؛ لأنا نلمح فى استعارة المشى[1] للزحف معنى لا يتحقق بدون هذه الاستعارة فالحشرة التى بدون أرجل قد يبدو أنها تعاني السير ، ولا تقدر عليه ، فإذا قيل : إنها تمشى ، أفاد أن الله سبحانه وتعالى قد منحها من القدرة على قطع المسافة ما منحه لصاحبة الأرجل ، على أن المشى غير الزحف ، وإن كانا مشتركين في قطع المسافة، أفبعد هذا ندعى أن هذه الاستعارة من قبيل إطلاق الشفة علي الجحفلة؟! »[2] .

ومفهوم من كلام الدكتور الذهبى أن استعارة المشى للزحف في الآية ليست استعارة لفظية ، وإنما هى استعارة معنوية أساسها التشبيه ، وهذا هو الذى يتفق وبلاغة القرآن الكريم .

رأى الإمام الرازى :

وقفت طويلا أما كلامه حول هذه الاستعارة ، وكدت أقطع بأنه لم يزد على ما قاله الزمخشرى شيئا ، خصوصا أنه قد أهملها فى كتابه (نهاية الإيجاز . . .) ويظهر أنه ضن عليها فى كتابه باسم الاستعارة ، كما ضن عليها الشيخ عبد القاهر فى بعض المواضع مُن قبل – لولا أن وفقنى الله للعثور على كلام له فى أحد المواطن يدل على أنه يرى أنها استعارة معنوية مفيدة ، وعلى ذلك فإن رأيه فيها – كما بدا لى . يتمثل فى وجهتين :

أولاهما : أنها استعارة لفظية غير مفيدة .

ثانيتهما : أنها معنوية مفيدة .

الوجهة الأولى: ذكر ما يدل عليها فى عدة أماكن، فقد قال عند تفسير

---

(١) فى الأصل (فى استعارة الزحف للمشى) ويبدو أنه سهو ، والصواب ما أثبته .

(٢) المرجع نفسه / ٣٥٧ .

قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ﴾ [النور: ٤٥]

« لم سمى الزحف على البطن مشيا؟ ويبين صحة هذا السؤال أن الصبى قد يوصف بأنه يحبو، ولا يقال: إنه يمشى، وإن زحف على حد ما تزحف الحية والجواب: هذا على سبيل الاستعارة، كما قالوا فى الأمر المستمر: قد مشى هذا الأمر، ويقال: فلان لا يتمشى له أمر ...» (١).

وقد لاحظت أن كلامه فى السؤال، والجواب شطر كلام صاحب الكشاف فى الآية - وقد سبق ذكره - نقل الإمام الرازى صدره، وترك عجزه، وتكملته: «ونحوه استعارة الشفة مكان الجحفلة، والمشفر مكان الشفة ونحو ذلك» (٢).

وقد ذكرت رد الدكتور الذهبى على الزمخشرى فيما قاله فى تلك الآية قريبا، وقال الإمام الرازى عند تفسير قوله تعالى: ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ [الصافات: ٦٥] «قوله: ﴿ طَلْعُهَا ﴾ قال صاحب الكشاف: الطلع للنخلة، فاستعير لما طلع من شجرة الزقوم من حملها إما استعارة لفظية أو معنوية ...» (٣).

فنجده قد نقل كلام صاحب الكشاف فى استعارة طلع النخلة لما طلع من شجرة الزقوم، دون أن يزيد عليه شيئا، وهذا يدل على أنه راض عما قاله فى تلك الاستعارة، وهو جعل احتمال الاستعارة فى الآية لفظية مساويا لاحتمال جعلها معنوية فيها.

وقال فى قوله تعالى: ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴾ [العاديات: ١]

بعد أن ذكر أن بعضهم يرى أن ﴿ الْعَادِيَاتِ ﴾ هى الإبل، وبعضهم يرى

---

(١) التفسير الكبير ١٢ - ٢/ ١٧.
(٢) الكشاف ٣/ ٨٠.
(٣) التفسير الكبير ١٣ - ٢/ ١٤٢.

أنهـا الخـيل: «واعلم أن ألفـاظ هذه الآية تنادى أن المراد هو الخـيل، وذلك لأن الضبح لا يكون إلا للفرس، واستعـمال هذا اللفظ فى الإبل يكون على سبيل الاستعارة، كما استعير المشافر، والحافر للإنسان، والشفتان للمهر ...» [١].

وهو فى هذا الموضع أيضا متأثر بالكشاف، فقد حكى صاحب الكشاف أن على بن أبى طالب – رضى الله عنه – جعل الضبح للإبل خلافا لابن عباس – رضى الله عنهما – الذى جعله للفرس، ثم ذكر أن الرواية عن على – رضى الله عنه – إن صحت «فقد استعير الضبح للإبل، كما استعير المشافر، والحافر للإنسان، والشفتان للمهر ...» [٢].

الوجهة الثانية:

ذكر عند تفسير قوله تعالى: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ [القلم: ١٦]

ما يفهم منه أن الخرطوم مستعار للأنف استعارة معنوية، فقد قال: «قال المبرد: الخرطوم ههنا الأنف، وإنما ذكر هذا اللفظ على سبيل الاستخفاف به، لأن التعبير عن أعضاء الناس بالأسماء الموضوعة لأشباه تلك الأعضاء من الحيوانات يكون استخفافا، كما يعبر عن شفاه الناس بالمشافر، وعن أيديهم وأرجلهم بالأظلاف، والحوافر» [٣].

وهذا النص على جانب كبير من الأهمية، لأنه يسجل للإمام الرازى موقفا يتلاءم ومنزلة القرآن الكريم، وسمو بلاغته.

وقد يقال: إن هذا كلام المبرد، ولا فضل للإمام الرازى فيه، والجواب عن ذلك – فيما أحسب – أن كلام المبرد هو (الخرطوم ههنا الأنف) والباقى تعليق الإمام الرازى عليه.

ولو سلمنا جَدَلاً أنه جميعه للمبرد [٤] ونقله الإمام الرازى، ولم يعقب عليه، فإنه يمثل رأيه، لأنه راض عنه.

---

(١) المصدر نفسه ١٦ – ٢/٦٤.

(٢) الكشاف ٤/٢٢٩.

(٣) التفسير الكبير ١٥ – ٢/٨٦.

(٤) بحثت عن كلام المبرد حول آية (القلم) فى كتابه (الكامل) فلم أعثر عليه فيه، ولعله مذكور فى كتاب آخر له، لم أهتد إليه.

وهذه الوجهة الثانية التى ارتضاها فى آية (القلم) هى الجديرة بالقبول، لأنه عبر فيها عن أنف الإنسان بالخرطوم من أجل الاستخفاف به، ولا شك أن هذا الاستخفاف جاء من وجود المشابهة بين الإنسان والحيوان.

وقد بين الشيخ عبد القاهر – كما سبق – أن هذه الاستعارة إذا جاءت فى موضع الذم والعيب، فهى معنوية مفيدة.

وقد لمحت الدكتورة بنت الشاطئ هذا المعنى فى التعبير عن أنف الإنسان بالخرطوم فقالت:

« والعدول عن الأنف إلى الخرطوم فى آية (القلم) فيه ملحظ التحقير، والهبوط بآدمية ذلك المفتون الشرير الجافى اللئيم إلى دونية البهائم، والدواب »[1].

أما الوجهة الأولى، فيلاحظ أنه اقتفى فيها أثر الزمخشرى، وجوز وقوع الاستعارة اللفظية فى القرآن الكريم.

وقد علمنا أنها تنقص من جمال الأسلوب، وتذهب ببهائه، ورونقه – كما أشار الشيخ عبد القاهر – فيما سبق.

أو هى من ردئ الاستعارة كما عبر غيره[2].

وكان ينبغى ألا ينقل كلام الزمخشرى، ويقبله على علاته، دون أن يعقب عليه، أو ينقده، وأن ينأى بالقرآن الكريم أن تحل بساحته هذه الاستعارة المعيبة.

وقد لاحظت أنه مَثَّلَ لهذه الاستعارة عندما اعتبرها مفيدة عند تفسير آية (القلم) – بإطلاق المشافر على شفاه الناس، والأظلاف، والحوافر على أيديهم وأرجلهم. وهذه الأمثلة تقريبا هى التى ساقها عند تفسير آية (العاديات).

---

(١) التفسير البيانى للقرآن الكريم ٢ / ٦١. (٢) ينظر (الصناعتين) ٣٣١ – ٣٣٢.

وهنا يحق لنا أن نتساءل إذا كان المثال الواحد يمكن أن يكون استعارة لفظية، أو معنوية باعتبار قصد وجود المشابهة، أو عدمه أما كان من اللائق أن تجعل الاستعارات السالفة الذكر التى قيل: إنها لفظية من قبيل الاستعارة المعنوية المفيدة قولا واحدا؟

- فمثلا - تجعل استعارة الضبح وهو صوت الخيل لصوت الإبل فى قوله تعالى: ﴿ **وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا** ﴾ [العاديات: ١]

- معنوية - على قول من يرى أن (العاديات) هى الإبل - لأن الخيل أقدر على الكر والفر، والإقدام، والإحجام.

وقد جعلها الله مصدرا من مصادر القوة التى تبعث الرعب فى قلوب أعداء الله، وأعداء المسلمين حين قال: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ** ﴾ [الأنفال: ٦٠]

وبذلك لا نجد للاستعارة اللفظية محلا فى القرآن الكريم، ولا تمنح شرف الانتساب إلى بلاغته.

الاستعارة اللفظية عند السكاكى:

جعل السكاكى الاستعارة اللفظية مجازا لغويا خاليا من الفائدة، فقال: « ... المجاز اللغوى الراجع إلى معنى الكلمة غير المفيد، هو أن تكون الكلمة موضوعة لحقيقة من الحقائق مع قيد، فتستعملها لتلك الحقيقة، لا مع ذلك القيد بمعونة القرينة، مثل أن تستعمل المرسن، وأنه موضوع لمعنى الأنف، مع قيد أن يكون أنف مرسون، استعمال الأنف، من غير زيادة قيد بمعونة القرائن كقول العجاج:

* وفاحما ومرسنا مسرجا [1] *

يعنى أنفا يبرق كالسراج، أو مثل المشفر، وهو موضوع للشفة مع قيد أن

---

(١) هذا عجز بيت، وصدره: - ومقلة وحاجبا مزججا - ينظر بغية الإيضاح ١ / ١٤.

تكون شفة بعير، استعمال الشفة، فتقول: فلان غليظ المشفر فى ضمن قرينة دالة على أن المراد هو الشفة، لا غير، أو مثل أن تستعمل الحافر، وأنه مرضوع للرجل مع قيد أن تكون رجل فرس، أو حمار، استعمال الرجل بالإطلاق اعتماداً على دلالة القرائن على ذلك، سمى هذا القبيل مجازا، لتعديه عن مكانه الأصلى، ومعنويا لتعلقه بالمعنى، لا بالحكم ... ولغويا، لاختصاصه بمكانه الأصلى بحكم الوضع، وغير مفيد؛ لقيامه مقام أحد المترادفين، من نحو: ليث، وأسد، وحبس، ومنع، عند المصير إلى المراد منه» (١).

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن هذا المجاز من الاستعارة عند السكاكى، فقال: «ولقد أضاف السكاكى إلى أقسام المجاز اللغوى ما سماه المجاز اللغوى الراجع إلى معنى الكلمة غير المفيدة، ويدخل فى الاستعارة ...» (٢).

ثم كرر هذا المعنى قائلا:

«وسمى هذا القبيل مجازا لتعديه عن مكانه الأصلى، واستعاريا لوجود المشابهة، ولغويا لاختصاصه بمكانه الأصلى بحكم الوضع، وغير مفيد لقيامه مقام أحد المترادفين، من نحو ليث، وأسد، وحبس، ومنع» (٣).

فقوله: ... ويدخل فى الاستعارة، ثم قوله بعد ذلك ... واستعاريا لوجود المشابهة، يعتبر مجافاة لكلام السكاكى، وعدم دقة فى تحريره، لأنه إذا كان استعاريا لوجود المشابهة، فكيف يكون غير مفيد؟!

ويلاحظ أن الباحث أخذ نص المفتاح كما هو غاية الأمر أنه أقحم عليه قوله: (واستعاريا لوجود المشابهة).

والذى يهمنى فى هذا البحث أن تلك التسمية الجديدة التى أطلقها السكاكى على الاستعارة اللفظية لم تغير شيئا من واقعها بالنسبة للقرآن الكريم، أو ترفع من قيمتها البلاغية قليلا، أو كثيرا.

---

(١) المفتاح/ ١٧٢.

(٢) فن الاستعارة، للدكتور أحمد عبد السيد الصاوى /١٤٧.

(٣) المرجع نفسه والموضع.

فسواء كانت استعارة لفظية، أو مجازا لغويا غير مفيد، فهما بمعزل عن القرآن الكريم.

وقد يكون من إتمام الفائدة هنا أن أشير إلى أن الخطيب القزوينى ذكر أن السكاكى قسم المجاز المرسل إلى خال عن الفائدة، ومفيد وجعل الخالى عن الفائدة ما استعمل فى أعم مما هو موضوع له، نحو قولنا: فلانٌ غليظ المشافر، إذا قامت قرينة على أن المراد هو الشفة لا غير ... [1].

وأضاف: أن الشيخ عبد القاهر جعل الخالى عن الفائدة ما استعمل فى شئ بقيد مع كونه موضوعا لذلك الشئ بقيد آخر من غير قصد التشبيه، كإطلاق الشفة والأنف المخصوصين بالإنسان على ما يناظرهما من أعضاء الحيوان، دون قصد إلى التشبيه [2]، فإذا أطلقت الشفة الخاصة بالإنسان على كل شفة فى أى حيوان فقد تجوز بهذا اللفظ، وأخرج من معناه المقيد إلى معنى مطلق، فتكون العلاقة فى هذا المجاز هى (الإطلاق بعد التقييد).

وهذا هو الاتجاه الذى ارتضاه السكاكى.

أما اتجاه الشيخ عبد القاهر - كما يفهم من كلامه - فهو يرى أن المتكلم محتاج بعد هذا الإطلاق حين يريد استعمال لفظ الشفة فى شفة الفرس بخصوصها، إلى تقييده مرة أخرى، فيكون قد تصرف تصرفا ثانيا هو (التقييد بعد الإطلاق) [3].

الاستعارة الأصلية:

من المعلوم أن الاستعارة الأصلية هى ما كان اللفظ المستعار فيها اسم جنس

---

(١) بغية الإيضاح/٣/١٠٢ (بتصرف).

(٢) المصدر نفسه/٣/١٠٣ (بتصرف).

(٣) الإفصاح عما تضمنه الإيضاح من مباحث البيان /١٣٨ - ١٣٩ (بتصرف).

يصدق على كثيرين، سواء كان اسم ذات أو اسم معنى [1]، ولم يذكر الإمام الرازى مصطلح الأصلية، ولو مرة واحدة فى تفسيره - حسب علمى - على الرغم من أنه صاحب الفضل فى إطلاق هذا المصطلح على ذلك النوع من الاستعارة [2] فى كتابه البلاغى.

وكان يشير إليها - جريا على عادته فى الاستعارة - بكلمة استعارة، أو ما اشتق منها، أو يكتفى بالقول: إنها مجاز، أو تشبيه.

وقد تكلم عن ألفاظ قرآنية مستعارة، وهى من أسماء الذوات، أو أسماء المعانى.

فمن أسماء الذوات التى ذكرها، وهى كثيرة، كلمة (ريشا) فى قوله تعالى: ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ** ﴾ [الأعراف: ٢٦]

فقد قال: «الريش لباس الزينة استعير من ريش الطير، لأنه لباسه، وزينته أى أنزلنا عليكم لباسين: لباسا يوارى سوآتكم، ولباسا يزينكم، لأن الزينة غرض صحيح كما قال: ﴿ **لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً** ﴾ [النحل: ٨]. وقال: ﴿ **وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ** ﴾ [النحل: ٦] [3]

ومنها كلمة (الشوكة) فى قوله تعالى: ﴿ ... **وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ** ... ﴾ [الأنفال: ٧]

فقد قال: «والطائفتان العير والنفير، وغير ذات الشوكة العير، لأنه لم يكن فيها إلا أربعون فارسا، والشوكة كانت فى النفير، لعددهم وعدتهم، والشوكة

---

(١) ينظر - مثلا - شرح عقود الجمان، للسيوطى / ٩٥، والمنهاج الواضح، للأستاذ حامد عونى / ١٣١.

(٢) ينظر الفخر الرازى والبلاغة العربية / ١٩٧، والبلاغة تطور وتاريخ، للدكتور شوقى ضيف / ٣٠٨، وينظر نهاية الإيجاز / ٨٩.

(٣) التفسير الكبير ٧ - ٢ / ٥٥.

الحدّة مستعارة من واحدة الشوك، ويقال: شوك القنا لسنانها، ومنه قولهم: شاكى السلاح، أى تتمنون أن يكون لكم العير، لأنها الطائفة التى لا جدة لها، ولا شدة ...» [١].

وقد لاحظت أن كلامه فى الآيتين السابقتين مأخوذ عن الكشاف [٢].

وقد سار على هذا النهج فى استعارة (الشوكة) للحدة والشدة صاحب (غرائب القرآن ...) فقال: «(من إحدى الطائفتين) وهما العير والنفير (وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم) أى تتمنون أن يكون لكم العير، لأنها الطائفة التى لا حدة لها، ولا شدة، والشوكة الحدة مستعارة من واحدة الشوك» [٣].

وجعل بعضهم (الشوكة) مستعارة للسلاح يقول الزجاج: «... أى تودون أن الطائفة التى ليس فيها حرب، ولا سلاح، وهى الإبل (تكون لكم) وذات الشوكة ذات السلاح ...» [٤].

وجعل الشهاب الخفاجى فى حاشيته على تفسير البيضاوى (الشوكة) مستعارة للشدة، والحدة، والسلاح جميعا فقال: «قوله: «والشوكة الحدة، مستعارة من واحدة الشوك» [٥] المعروف استعيرت للشدة، والحدة، وللسلاح أيضا ...» [٦].

ومن البين أن الطائفة ذات الشوكة، وهى جيش المشركين فى غزوة بدر، كان فى لقائها شدة على المسلمين، وصعوبة عليهم، وكانت عدة المشركين، وعتادهم وسلاحهم أوفر مما لدى المسلمين، فأراد المسلمون العير، وأراد الله النفير، فكان ما أراده الله ﴿ **لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ** ﴾ [الأنفال: ٨]

---

(١) المصدر نفسه ٨ – ١/١٣٢. (٢) ينظر الكشاف ٢/٥٨، ٢/١١٥.

(٣) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، للنيسابورى ٩/١٢٥.

(٤) معانى القرآن وإعرابه، للزجاج ٢/٤٤٤.

(٥) ينظر تفسير البيضاوى/ ٢٥٢. (٦) حاشية الشهاب ٤/٢٥٥.

وقال الإمام الرازى عند تفسير قوله تعالى فى شأن ذى القرنين: ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا * فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ [الكهف: ٨٤، ٨٥]

« ... السبب فى أصل اللغة عبارة عن الحبل، ثم استعير لكل ما يتوصل به إلى المقصود، وهو يتناول العلم، والقدرة، والآلة، فقوله: ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ معناه أعطيناه من كل شئ من الأمور التى يتوصل بها إلى تحصيل ذلك الشئ، ثم إن الذين قالوا: إنه كان نبيا، قالوا: من جملة الأشياء النبوة، فهذه الآية تدل على أنه تعالى أعطاه الطريق الذى به يتوصل إلى تحصيل النبوة، والذين أنكروا كونه نبيا قالوا المراد به وآتيناه من كل شئ يحتاج إليه فى إصلاح ملكه سببًا » (١).

وقال فى قوله تعالى: ﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ﴾ [المؤمنون: ٥٣]

« ... أما قوله: ﴿ فَتَقَطَّعُوا ﴾ فالمعنى فإن أمم الأنبياء عليهم السلام تقطعوا أمرهم بينهم، وفى قوله: (فتقطعوا) معنى المبالغة فى شدة اختلافهم، والمراد بأمرهم ما يتصل بالدين، أما قوله: ﴿ زُبُرًا ﴾ فقرئ زبرا جمع زبور أى كتبا مختلفة، يعنى جعلوا دينهم أديانا، وزبرا قطعا استعيرت من زبر الفضة، والحديد، وزبرا مخففة الباء كَرُسْل فى رُسُل ... » (٢).

ومن الكلمات التى ذكر أنها استعارة، وهى اسم معنى كلمة (فور) من قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا ... ﴾ [آل عمران: ١٢٥]، فقد قال: « الفور مصدر من فارت القدر إذا غلت قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾ [هود: ٤٠] قيل: إنه أول ارتفاع الماء منه، ثم جعلوا هذه اللفظة استعارة فى المسرعة، يقال: جاء فلان، ورجع من فوره، ومنه قول الأصوليين: الأمر للفور، أو التراخى، والمعنى حدة مجئ العدو، وحرارته، وسرعته » (٣).

---

(١) التفسير الكبير ١١ – ١/١٦٦. (٢) المصدر نفسه ١٢ – ١/١٠٦.

(٣) المصدر نفسه ٤ – ٢/٢٣٤، وينظر التلويح على التوضيح، للسعد ١/١٧٤.

فقد أطلق فى الآيات السابقة كلمة الاستعارة، أو ما اشتق منها على الاستعارة الأصلية.

ولكنه كان أحيانا يشير إلى هذه الاستعارة بكلمة المجاز، ولا يصرح بكلمة الاستعارة، مع أن من الواضح أن المجاز أعم من الاستعارة.

وقد ذكر ذلك فى كتابه البلاغى عندما عقد فصلا فى أن المجاز أعم من الاستعارة، لأنها ... عبارة عن نقل الاسم عن أصله إلى غيره للتشبيه بينهما على حد المبالغة، وظاهر أنه ليس كل المجاز فهو للتشبيه ...» (١).

ومن قبله بَيَّنَ الشيخ عبد القاهر «أن المجاز أعم من الاستعارة، وأن الصحيح أن كل استعارة مجاز، وليس كل مجاز استعارة» (٢).

فقد قال الإمام الرازى فى قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [البقرة: ٧] «... أما الغشاوة فحقيقتها الغطاء المانع من الإبصار، ومعلوم من حال الكفار خلاف ذلك، فلا بد من حمله على المجاز، وهو تشبيه حالهم بحال من لا ينتفع ببصره فى باب الهداية» (٣).

وقد حكى أن كلمة (القول) وهى اسم معنى تطلق مجازا على الاعتقادات، والآراء، فقال: «... إن لفظ القول يصح جعله مجازا عن الاعتقادات، والآراء، كقولك: فلان يقول بقول أبى حنيفة، ويذهب إلى قول مالك، أى يعتقد ما كانا يريانه، ويقولان به، ألا ترى أنك لو سألت رجلا عن صحة رؤية الله تعالى، فقال: لا تجوز رؤيته، فتقول: هذا قول المعتزلة، ولا تقول هذا كلام المعتزلة إلا على سبيل التعسف، وذكر أن السبب فى حسن هذا المجاز أن الاعتقاد لا يفهم إلا بغيره، فلما حصلت المشابهة من هذا الوجه، لا جرم حصل سبب جعله مجازا عنه» (٤).

---

(١) نهاية الإيجاز/ ٥٥.
(٢) أسرار البلاغة/ ٣١٩.
(٣) التفسير الكبير ١ - ٢/ ٥٧.
(٤) المصدر نفسه ١ - ١/ ٢٧.

وإطلاق الإمام الرازى لفظ المجاز على الاستعارة فى الموضعين السابقين، وفى غيرهما، ليس تقصيرا منه، أو عيبا يزرى، بتناوله البلاغى، لأنه من ناحية فى معرض التفسير، وهو ليس ميدانا لتحديد المصطلحات البلاغية، بل تكفى فيه الإشارة البلاغية المفيدة، ومن ناحية أخرى فإنه كثيرا ما يذكر فى مثل هذه المواضع، أو يشير إلى أن هذا المجاز، يتضمن تشبيها، أو مشابهة، أو نحو ذلك. وهذا يعتبر تبيانا لنوع هذا المجاز، وأنه استعارة، لأنها المجاز الذى يقام على التشبيه.

وأكثر من ذلك فقد وجدته يكتفى بشرح الاستعارات الأصلية على أنها تشبيه، دون الإشارة من قريب، أو بعيد إلى الاستعارة، أو المجاز فقد قال فى قوله تعالى: ﴿ **ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ** ﴾ [آل عمران: ١١٢]

« ... ثم قال تعالى ﴿ **إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ** ﴾ والمراد إلا بعهد من الله، وعصمة، وذمام من الله، ومن المؤمنين ... » (١).

وقال فى الموضع نفسه: «المراد من حبل الله عهده، وقد ذكرنا فيما تقدم (٢) أن العهد إنما سمى بالحبل، لأن الإنسان لما كان قبل العهد خائفا، صار ذلك الخوف مانعا له من الوصول إلى مطلوبه، فإذا حصل العهد، توصل بذلك العهد إلى الوصول إلى مطلوبه، فصار ذلك شبيها بالحبل الذى من تمسك به، تخلص من خوف الضرر» (٣).

ومن الواضح أن إطلاق الحبل على العهد استعارة، فقد قال بعضهم:

---

(١) المصدر نفسه ٤ - ٢ / ٢٠٠.

(٢) ينظر المصدر نفسه ٤ - ٢ / ١٧٧، عند تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا** ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

(٣) المصدر نفسه ٤ - ٢ / ٢٠١.

« وسمى العهد حبلا من باب مجاز التشبيه، لأن الحبل شأنه أن يصل بين الشيئين، وهذا العهد وصل بين المؤمنين واليهود، حتى صاروا كَالْمِلَّةِ الواحدة من جهة عدم القتل، والقتال ... » (١).

وقال الإمام الرازى فى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ ...** ﴾ [النمل: ٨٠، ٨١]

« فالله سبحانه وتعالى قطع محمدا ﷺ عنهم بأن بين له أنهم كالموتى، وكالصم، وكالعمى، فلا يفهمون، ولا يسمعون، ولا يبصرون، ولا يلتفتون إلى شئ من الدلائل ... » (٢).

وقال فى قوله تعالى: فى شأن موسى وهارون عليهما السلام: ﴿ **وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** ﴾ [الصافات: ١١٨]

« قوله تعالى: ﴿ **وَهَدَيْنَاهُمَا** ﴾ أى دللناهما على طريق الحق عقلا وسمعا وأمددناهما بالتوفيق، والعصمة، وتشبيه الدلائل الحقه بالطريق المستقيم واضح » (٣).

وقال فى قوله تعالى: ﴿ **أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ ...** ﴾ [الزخرف: ٤٠]

« يعنى أنهم بلغوا فى النفرة عنك، وعمن دينك إلى حيث إذا أسمعتهم القرآن كانوا كالأصم، وإذا أريتهم المعجزات، كانوا كالأعمى (٤)

---

(١) الاستغناء فى أحكام الاستثناء / ٥٩٣. (٢) التفسير الكبير ١٢ - ٢ / ٢١٦.

(٣) المصدر نفسه ١٣ - ٢ / ١٦٠.

(٤) كان المناسب أن يقول: كانوا كالصم.، وكانوا كالعمى بالجمع بدلا من كانوا كالأصم، وكانوا كالأعمى، حتى يقابل الجمع بالجمع كما نطقت الآية، وكما ذكر هو نفسه عند آيتى النمل السابقتين.

ثم بين تعالى أن صممهم، وعماهم إنما كان بسبب كونهم فى ضلال مبين» [1].

وقال فى قوله تعالى: ﴿ ... لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: ١] «إنما شبه الكفر بالظلمات، لأنه نهاية ما يتحير الرجل فيه عن طريق الهداية، وشبه الإيمان بالنور، لأنه نهاية ما يتجلى به طريق هدايته» [2].

فنراه قد جعل الاستعارة الأصلية فى الآيات السالفة الذكر تشبيها، بل إنه لم يصرح فى بعضها بكلمة التشبيه، واكتفى بذكر أداته وإنما جعلها فى مثل هذه المواضع تشبيها، باعتبار أصلها الذى بنيت عليه، وهذا صواب لا يشوبه خطأ [3].

موقفه من استعارة الظلمات والنور فى القرآن الكريم:

من الكلمات القرآنية التى ألفتها عيون المسلمين، وآذانهم كلمتا الظلمات والنور.

وقد عرض لهما الإمام الرازى فى كتابه البلاغى، وفى تفسيره، فقال فى الكتاب: «... وقوله: ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ كل ما فى القرآن من ذكر الظلمات، والنور فهو مستعار» [4].

ويلاحظ أنه لم يذكر المستعار له فيهما.

وقد حظيت هذه القاعدة العامة التى ذكرها بإعجاب بعض المؤلفين فسطروها فى بطون كتبهم مع اختلاف لا يذكر.

يقول صاحب كتاب الفوائد المشوق: «وكل ما فى القرآن من الظلمات، والنور، مستعار» [5] ويقول الزركشى: «وكل ما فى القرآن من الظلمات، والنور مستعار» [6].

---

(١) المصدر نفسه ١٤ - ١/٢١٦.
(٢) المصدر نفسه ١٠ - ١/٧٤.
(٣) ينظر أسرار البلاغة/٢٥٩.
(٤) نهاية الإيجاز/ ١٠١.
(٥) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان/٤٨.
(٦) البرهان فى علوم القرآن ٣/٤٤٣.

ولم يذكر المؤلف ان السابقان أيضا المستعار له فى كل من الظلمات، والنور، فإذا ما انتقلنا إلى تفسيره، وجدناه قد ذكر فى بعض المواضع ما يفيد أنهما مستعاران للإيمان، والكفر، فقد قال عند قوله تعالى: ﴿ **يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ** ﴾ [المائدة: ١٦]

« ... ثم قال: (ويخرجهم ...) أى من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، وذلك أن الكفر يتحير فيه صاحبه، كما يتحير فى الظلام، ويهتدى بالإيمان إلى طرق الجنة كما يهتدى بالنور » (١).

وقد ألقى فى أحد المواضع مزيدا من الضوء على أصل هاتين الاستعارتين فقال: « ... فأما تشبيه الإيمان بالنور، والكفر بالظلمة، فهو فى كتاب الله تعالى كثير، والوجه فيه أن النور قد بلغ النهاية فى كونه هاديا إلى المحجة، وإلى طريق المنفعة، وإزالة الحيرة، وهذا حال الإيمان فى باب الدين، فشبه ما هو النهاية فى إزالة الحيرة، ووجدان المنفعة فى باب الدين، بما هو الغاية فى باب الدنيا، وكذلك القول فى تشبيه الكفر بالظلمة، لأن الضال عن الطريق المحتاج إلى سلوكه لا يرد عليه من أسباب الحرمان، والتحير أعظم من الظلمة، ولا شئ كذلك فى باب الدين أعظم من الكفر، فشبه تعالى أحدهما بالآخر ... » (٢).

وقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿ **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، « أجمع المفسرون على أن المراد ههنا من الظلمات، والنور الكفر، والإيمان » (٣).

وقد حكى وهو بصدد تفسير الآية السابقة أن كل ما فى القرآن ﴿ **مِّنَ**

---

(١) التفسير الكبير ٦ – ١ / ١٩٥.

(٢) المصدر نفسه ١ – ٢ / ٨٢، عند تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ** ﴾ [البقرة: ١٧]

(٣) المصدر نفسه ٤ – ١ / ٢٠.

الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ فإنه يراد بهما الكفر، والإيمان، باستثناء موضع واحد، وسياق كلامه يظهر أنه راض عما حكاه، ومؤيد له.

فقد جاء في معرض رده على من يرى أن معنى (يخرجهم من الظلمات إلى النور) يعدل بهم من النار إلى الجنة – أن هذا الفهم مدفوع بوجهين : أحدهما أن الواقدى قال : « كل ما فى القرآن (من الظلمات إلى النور) فإنه أراد به الكفر والإيمان غير قوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿ **وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ** ﴾[الأنعام:١]، فإنه يعنى به الليل والنهار ... » (١) .

فنجده – فيما سبق – قد جعل كلمتى (الظلمات والنور) مستعارتين للكفر والإيمان ، ولكنه ذكر فى بعض المواضع أنهما تستعاران للعلم ، والجهل أيضًا ، فقال ، وهو يتكلم عن السر فى مجئ (الظلمات) جمعا ، (والنور) مفردا :

« ... الآية (٢) دالة على أن طرق الكفر ، والبدعة كثيرة ، وأن طريق الخير ليس إلا الواحد ؛ لأنه تعالى قال : ﴿ **لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** ﴾ فعبر عن الجهل ، والكفر بالظلمات ، وهى صيغة جمع ، وعبر عن الإيمان ، والهداية بالنور ، وهو لفظ مفرد ، وذلك يدل على أن طرق الجهل كثيرة ، وأما طريق العلم، والإيمان ، فليس إلا الواحد » (٣) .

وزاد فى بعض المواطن استعارتهما للشبهة ، والحجة فقال عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **... قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ...** ﴾

[الطلاق:١٠، ١١]

« وقوله تعالى: (ليخرج ...) يعنى من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان ، ومن ظلمة الشبهة إلي نور الحجة ، ومن ظلمة الجهل إلى نور العلم » (٤) .

---

(١) المصدر نفسه ٤ ، ١/ ٢٠ .
(٢) الآية الأولى / إبراهيم .
(٣) المصدر نفسه ١٠ ، ١/ ٧٥ .
(٤) التفسير الكبير ١٥ ، ٢/ ٣٨ – ٣٩ .

فتحصل من كلامه الذى سبق أن كلمتى الظلمات والنور تستعاران للإيمان والكفر ، أو العلم والجهل ، أو الحجة ، والشبهة ، وهذا يتفق مع ما ذكره الشيخ عبد القاهر ، فقد صرح بأن النور يستعار للإيمان ، والعلم ، والحجة ، وأن الظلمة تستعار للكفر ، والجهل والشبهة [1] .

ومع ذلك فقد بدت لى بعض الملاحظات على كلام الإمام الرازى حول استعارة الظلمات ، والنور فى القرآن الكريم ، وتتمثل فيما يأتى :

أولا : القاعدة التى ذكرها فى كتابه ، وجعل فيها كل ما فى القرآن من الظلمات ، والنور مستعارا ، خدشها بنفسه عندما وافق في موضع من تفسيره على أنها لا تشمل الظلمات ، والنور فى أول سورة الأنعام – كما سبق – ومعنى هذا أنه اعتمد قاعدة قاصرة لم تبن على أساس سليم من الاستقراء التام ، والتتبع الدقيق لمواقع الكلمتين فى القرآن الكريم .

ثانيًا : هذه القاعدة التى ذكرها فى كتابه توهم أن الظلمات لو وجدت وحدها كانت مستعارة ، وكذلك النور ، وهذا يقتضى – مثلا – أن كلمة (الظلمات) فى قوله تعالى :﴿ **فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ . .** ﴾ [الأنبياء : ٨٧] ، استعارة ، والواقع أنها حقيقة .

والظاهر أنه يقصد من قاعدته (الظلمات والنور) عند اجتماعهما معا فحسب ، ولو قالها على النحو الآتى : (كل ما في القرآن من ذكر الظلمات إلي النور ، فهو مستعار) بإضافة (إلى) إليها لأبعد عنها هذا الإيهام .

وقد ظهر لى بما يشبه اليقين أن الإمام الرازى أخذ القاعدة المذكورة من قول الرمانى : « وقال عز وجل : ﴿ **الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** ﴾ [إبراهيم : ١] كل ما جاء فى القرآن من ذكر الظلمات إلى النور فهو مستعار ، وحقيقته من الجهل إلى العلم . . . » [2] .

---

(١) ينظر أسرار البلاغة / ٤٦ .

(٢) النكت فى إعجاز القرآن / ٩٢ ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن للرمانى ، والخطابى ، وعبد القاهر الجرجانى .

ولكنه تصرف فيها بحذف حرف الجر (إلى) ، ولعل ذلك سهو منه ، أو خطأ من الناسخ .

وهنا يبدو أمامنا هذا التساؤل : لِمَ لَمْ يُكْمِلْ الإمام الرازى كلام الرمانى، ويذكر المستعار له الذى ذكره فيهما ؟

ويمكن الإجابة عن ذلك – والله أعلم – أنه ربما لم يرتض جعله الكلمتين مستعارتين فى جميع القرآن الكريم للعلم ، والجهل ، لا غير ، فأعرض عن ذكر المستعار له فيهما ، ولعل هذا هو السر فى عدم وجود المستعار له عقب عبارته السابقة في (نهاية الإيجاز ...) .

ولست هنا فى مجال مناقشة الرمانى فيما ذهب إليه من كون الظلمات ، والنور مستعارتين فى كل القرآن للعلم ، والجهل ، وإن ظهر مما تقدم ذكره أنهما تستعاران لغيرهما .

وقد هدانى إلى أخذ الإمام الرازى القاعدة المذكورة عن الرمانى – التشابه الذى يكاد يكون تاما بين عبارتيهما ؛ فدفعنى ذلك إلى أن أمعن النظر فى الاستعارات القرآنية التى ذكرها فى (نهاية الإيجاز) وما كتبه الرمانى فى كتابه (النكت فى إعجاز القرآن) من هذه الاستعارات ، فوجدته متأثرا به إلى درجة كبيرة ، ولولا خوف الإطالة ، والخروج عن الموضوع ، لنقلت فقرات كاملة من الكتابين ، ليظهر مدى الصلة الوثيقة بينهما [1] .

وهذا لا يعيب الإمام الرازى ؛ لأنه كثيرا ما يذكر أسماء العلماء الذين يأخذ عنهم ، ولا يجد غضاضة فى ذلك ؛ فإذا ما أغفل ذكر بعض أسمائهم – أحيانا – فلا يكون ذلك عن قصدٍ وإصرار .

وكما تأثر بغيره فى هذا الموضع تأثر به غيره ، فقد وجدت ابن القيم والزركشى قد نقلا عنه كثيرا مما كتبه فى الاستعارات القرآنية ، ونقلا عنه خلالها القاعدة العامة التى ذكرها حول استعارة الظلمات والنور فى القرآن ولم يذكرا

(١) ينظر النكت فى إعجاز القرآن / ٨٦ – ٩٤ ، ونهاية الإيجاز من ١٠٠ – ١٠٢ .

فيها حرف الجر (إلى) ولا المستعار له تبعا له [1] دون أن يحررا تلك القاعدة ، أو يعقبا عليها بشئ .

ثالثا : يفهم مما حكاه عن الواقدى أعنى : كل ما فى القرآن (من الظلمات إلي النور) فإنه أراد به الكفر والإيمان غير قوله تعالى فى سورة (الأنعام) (وجعل الظلمات والنور) فإنه يعنى به الليل والنهار .

أنه يتضمن أمورا ثلاثة :

أولها : أن كل ما فى القرآن (من الظلمات إلى النور مستعار) ، وهذا صواب إذا كان على الصورة المذكورة .

ثانيها : عدم انطباق هذا الحكم على (الظلمات والنور) فى أول سورة (الأنعام) ويبدو لى أنه لا معنى لإخراج الكلمتين فى أول (الأنعام) . لأنهما لا تندرجان تحت هذا الحكم ، أو تلك القاعدة أصلا حتى يخرجان منها ؛ فهما (الظلمات والنور) وليستا (الظلمات إلى النور) وفرق كبير بينهما .

ثالثها : أن الكلمتين فى المواضع الباقية فى القرآن الكريم كله مستعارتان للإيمان والكفر .

وموافقة الإمام الرازى على تلك المقولة ، وتسجيله لها فى تفسيره دليل على أنه راض عن استعارة الكلمتين فى القرآن للإيمان والكفر ، بعد الموضع المستثنى .

وهذا يتنافى مع ما نقلته عنه فى صدر هذا الحديث من أنهما تستعاران أيضًا للعلم والجهل ، والحجة ، والشبهة .

ويؤكد هذا التنافى أنه ذكر عند تفسير آية (الطلاق) السالفة الذكر أن المؤمنين يمكن أن يخرجوا من ظلمات تحدث لهم ، فقد قال : « كل من آمن بالله

---

(١) ينظر كتاب الفوائد المشوق / ٤٨ وما بعدها، والبرهان فى علوم القرآن / ٣ / ٤٤٣ وما بعدها ، ونهاية الإيجاز / ١٠٠ – ١٠٢ .

فقد خرج من الظلمات إلى النور ، وإذا كان كذلك ، فحق هذا الكلام ، وهو قوله تعالى : ﴿ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أن يقال : ليخرج الذين كفروا ، نقول : يمكن أن يكون المراد ليخرج الذين يؤمنون على ما جاز أن يراد من الماضى المستقبل ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ﴾ أى وإذ يقول الله ، ويمكن أن يكون ليخرج الذين آمنوا من ظلمات تحدث لهم بعد إيمانهم [١] .

وقد وجدت هذا المنحى فى آية أخرى اشتملت على (الظلمات إلي النور) وهي تخاطب المؤمنين صراحة ، وهى قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [الأحزاب : ٤٣] .

ويفهم من تناول صاحب الكشاف – رحمه الله – لهذه الآية أن الظلمات والنور فيها مستعارتان للمعصية ، والطاعة ؛ لأنه لمح أنها تخاطب المؤمنين فقد قال : « ... (ليخرجكم) من ظلمات المعصية إلي نور الطاعة » [٢] .

وبناء على ما سلف ذكره أصبح واضحا من كلام الإمام الرازى في ثنايا تفسيره ومن كلام غيره أن (الظلمات إلي النور) مستعارتان فى القرآن لغير الإيمان والكفر ، وأن القاعدة التى رواها عن الواقدى ، وادعى فيها صاحبها أن كل ما في القرآن من الظلمات إلي النور فإنه يراد به الكفر والإيمان ... غير جامعة، ولاتمثل إلا وجها واحدا من عدة وجوه ، وكان ينبغى ألا يكترث بها الإمام الرازى ، لعدم كفاءتها ، وتعارضها مع استعمالات القرآن الكريم .

الاستعارة التبعية :

الاستعارة التبعية هى ما كان اللفظ المستعار فيها فعلا ، أو اسما مشتقا ، أو حرفا [٣] ولم يذكرها الإمام الرازى باسمها فى تفسيره ، وإن كان هو الذى سماها تبعية في كتابه البلاغى [٤] .

---

(١) التفسير الكبير ١٥ ، ٢/ ٣٩ .

(٢) الكشاف ٣ / ٢٤٠ .

(٣) ينظر شرح عقود الجمان ، للسيوطى / ٩٥ .

(٤) ينظر الفخر الرازى والبلاغة العربية / ١٩٧ ، ونهاية الإيجاز / ٨٩ .

وكان كعادته فى الاستعارة يشير إلي أن فى الكلام استعارة ، أو يقول : إنها مجاز ، أو تشبيه ، وقد يصرح بذكر المستعار له – أحيانا – ولا يزيد على ذلك شيئا .

وتأتى الاستعارة التبعية فى الماضى باعتبار زمانه ، أو باعتبار حدثه ، وهى في الحالين باقية علي تبعيتها [1] .

أولا : التبعية فى الماضى باعتبار زمانه :

أشار فى موضع من المواضع إلي الاستعارة التبعية في الماضي باعتبار زمانه ، واكتفى بالقول : إنها مجاز، فقال فى قوله تعالى : ﴿ **هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ ...** ﴾ [البقرة : ٢١٠] .

«قوله : (وقضى الأمر) معناه : ويقضى الأمر ، والتقدير : إلا أن يأتيهم الله، ويقضى الأمر ، فوضع الماضى موضع المستقبل ، وهذا كثير فى القرآن ، وخصوصا فى أمور الآخرة ؛ فإن الإخبار عنها يقع كثيرا بالماضى قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ **وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ** ﴾ [المائدة : ١١٦] [2] والسبب فى اختيار هذا المجاز أمران :

أحدهما : التنبيه على قرب أمر الآخرة ، فكأن الساعة قد أتت ، ووقع ما يريد الله إيقاعه .

الثانى : المبالغة فى تأكيد أنه لابد من وقوعه ، لتجزى كل نفس بما تسعى؛ فصار بحصول القطع ، والجزم بوقوعه كأنه قد وقع وحصل» [3] .

وقد أشار فى عدة مواضع إلي فائدة هذا المجاز ، فذكر أن التعبير عن المستقبل بالماضى يفيد تحقيق الوقوع ، وتأكيده ، والمبالغة فيه ، فقال عند تفسير

---

(١) ينظر البلاغة التطبيقية ، للدكتور أحمد موسى / ١٣٠ .

(٢) فى التفسير ابتدئت هذه الآية بـ(اذ) دون واو قبلها ، والصواب ما أثبته ولعل الواو سقطت من الناسخ . وقد أضفت إلي ما ذكره من الآية ، بعضا منها إتماما للفائدة .

(٣) التفسير الكبير ٣ ، ١ / ٢٣٥ .

قوله تعالى : ﴿ **وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ** ﴾ [هود . ٨] .

« لم قال : (وحاق) على لفظ الماضى ، مع أن ذلك لم يقع ؟ والجواب : قد مر فى هذا الكتاب [١] آيات كثيرة من هذا الجنس ، والضابط فيها أنه تعالى أخبر عن أحوال القيامة بلفظ الماضى مبالغة فى التأكيد ، والتقرير [٢] » .

وقال عند تفسير قوله تعالى فى شأن فرعون : ﴿ **يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ** ﴾ [هود : ٩٨] .

« فإن قيل لِمَ لمْ يقل يقدم قومه فيوردهم النار ، بل قال : يقدم قومه فأوردهم النار بلفظ الماضى؟ قلنا : لأن الماضى قد وقع ، ودخل فى الوجود ، فلا سبيل البتة إلي دفعه، فإذا عبر عن المستقبل بلفظ الماضى دل على غاية المبالغة[٣] » .

وقال فى قوله تعالى : ﴿ **وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ...** ﴾ [إبراهيم : ٢١] .

بعد أن ذكر أن معنى برزوا ظهروا بعد خفاء ... « قوله : (وبرزوا) ورد بلفظ الماضى ، وإن كان معناه الاستقبال ، لأن كل ما أخبر الله تعالى عنه ، فهو صدق وحق ، فصار كأنه قد حصل ، ودخل فى الوجود ونظيره قوله : ﴿ **وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ** ﴾ [الأعراف : ٥٠] [٤] » .

وقال فى قوله تعالى : ﴿ **وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ...** ﴾ [النمل : ٨٧] .

« أما قوله : ﴿ **فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ** ﴾ فاعلم أنه إنما قال : (ففزع ولم يقل فيفزع ؛ للإشعارٌ بتحقيق الفزع ، وثبوته ، وأنه كائن لا محالة ؛ لأن الفعل الماضى يدل على وجود الفعل ، وكونه مقطوعا به ... » [٥] .

---

(١) أى التفسير .
(٢) المصدر نفسه ٩ ، ١ / ١٩٧ .
(٣) المصدر نفسه ٩ / ٢ / ٥٥ .
(٤) المصدر نفسه ١٠ ، ١ / ١٠٩ .
(٥) التفسير الكبير ١٢ ، ٢ / ٢٢٠ .

ولم أظفر ولو بموضع واحد فى تفسيره – حسب جهدى – ذكر فيه أن التعبير عن المستقبل بالماضى استعارة ، أو تشبيه ، إنما هو موضع واحد ذكر فيه أنه مجاز ، وقد أوردته فى بداية هذا الحديث .

ولا غرابة فى ذلك فقد عهدناه فى كثير من المواضع يطلق على الاستعارة مجازا .

وقد صرح العز بن عبد السلام بأن هذا من مجاز المشابهة – أى الاستعارة – يقول فى ذلك : « وأما الأفعال ، فالتجوز فيها أنواع : أحدها : التجوز بالماضى عن المستقبل تشبيها له فى التحقيق ...[1] » .

وبعد أن أورد كثيرا من الآيات القرآنية عبر فيها عن المستقبل بالماضى قال : « وهذا من مجاز التشبيه شبه المستقبل فى تحققه وثبوته بالماضى الذى دخل فى الوجود بحيث لايمكن رفعه »[2] .

ثانيا : التبعية فى الماضى باعتبار الحدث :

أشار إلى الاستعارة التبعية فى الماضى باعتبار حدثه – معناه – وتمثل ذلك فى عدة صور :

إحداها : أن يصرح بأنها استعارة ، ومن هذا القبيل ما ذكره عند قوله تعالى : ﴿ ... **وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ** ... ﴾ [البقرة : ١٠٢] .

فقد قال : « إنما ذكر لفظ الشراء على سبيل الاستعارة ؛ لوجوه : أحدها : أنهم لما نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، وأقبلوا على التمسك بما تتلو الشياطين فكأنهم قد اشتروا ذلك السحر بكتاب الله ... »[3] .

ومن هذا النوع ما ذكره عند قوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ** ... ﴾ [البقرة : ٢٠٥] .

---

(١) الإشارة إلي الإيجاز فى بعض أنواع المجاز / ٣٧ . (٢) المرجع نفسه / ٣٨ .

(٣) التفسير الكبير ٢ ، ١ / ٢٤٠ .

فقد قال : قوله : (سعي فى الأرض) أي اجتهد فى إيقاع القتال ، وأصل السعى هو المشى بسرعة ، ولكنه مستعار لإيقاع الفتنة والتخريب بين الناس ، ومنه يقال : فلان يسعى بالنميمة ... [1] .

ومنه ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ...** ﴾

[الأعراف : ١٧٢]

فقد ذكر أن (قالوا ...) فى بعض الأقوال لا يراد به القول باللسان يقول فى ذلك : « .. ثم أشهدهم على أنفسهم بما ركب فيهم من دلائل وحدانيته ، وعجائب خلقه ، وغرائب صنعه ، فبالإشهاد صاروا كأنهم قالوا : بلى ، وإن لم يكن هناك قول باللسان ، ولذلك نظائر منها قوله تعالى : ﴿ **فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ** ﴾ [فصلت : ١١] . ومنه قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾ [النحل : ٤٠] [2] .وقول العرب : قال الجدار للوتد لم تشقنى ؟ قال : سل من يدقنى .. فهذا النوع من المجاز والاستعارة مشهور فى الكلام فوجب حمل الكلام عليه ... » [3] .

ومن إيراده (قال) فى غير النطق باللسان قوله : لفظ (قال) قد يستعمل فى غير النطق قال أبو النجم :

قالت له الطير تقدم راشدا إنك لا ترجع إلا حامدا

وقال آخر :

وقالت له العينان سمعا وطاعة وحدرتا كالدر لما يثقب

وقال :

امتلأ الحوض وقال قطنى مهلا رويدا قد ملأت بطنى [4]

---

(١) المصدر نفسه ٣ ، ١ / ٢١٧ . (٢) فى التفسير (إنما أمرنا) والصواب ما أثبته .

(٣) المصدر نفسه ٨ ، ١ / ٥٣ - ٥٤ .

(٤) المصدر نفسه ١ ، ١ / ٢٧ . عند كلامه فى استعمال القول فى غير النطق .

ومن هذا القبيل ما ذكره عند قوله تعالى : ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ [الجن : ٨] .

فقد قال : « اللمس : المس فاستعير للطلب ؛ لأن الماس طالب متعرف يقال : لمسه ، والتمسه ، ومثله : الجس يقال : جسوه بأعينهم ، وتجسسوه ، والمعنى : طلبنا بلوغ السماء ، واستماع كلام أهلها »(١) .

ثانيتها : أن يكتفي بإطلاق المجاز عليها ، ومن ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : ﴿... يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة : ٢٦]

فقد ذكر في معنى الإضلال عدة وجوه أحدها : أن يحمل الإضلال على الإهلاك ، والإبطال كقوله : ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ١] . قيل : أبطلها ، وأهلكها ، ومن مجازه قولهم : ضل الماء في اللبن ، إذا صار مستهلكا فيه ، ويقال : أضللته أنا ، إذا فعلت ذلك به ، فأهلكته ، وصيرته كالمعدوم ، ومنه يقال : أضل القوم ميتهم، إذا واروه في قبره حتى صار لا يرى، قال النابغة :

وآب مُضِلُّوهُ بعين جلية وغودر بالجولان حزم ونائل

وقال تعالى : ﴿... وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [السجدة : ١٠] . أي أئذا انْدَفَنَّا فيها فخفيت أشخاصنا ... (٢) .

ومن الاستعارات التي أطلق عليها أنها مجاز ما ذكره عند قوله تعالى : ﴿... وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة : ٢١٤] .

فقد قال بعد أن صرح بأن معنى (وزلزلوا) حركوا بأنواع البلايا والرزايا : « وفسر بعضهم (زلزلوا) ههنا بـ (خوفوا) وحقيقته غير ما ذكرنا ؛ وذلك لأن

---

(١) التفسير الكبير ١٥ ، ٢/١٥٧ . (٢) المصدر نفسه ١ ، ٢/١٥٦ .

الخائف لا يستقر ، بل يضطرب قلبه ، ولذلك لا يقال ذلك إلا فى الخوف المقيم المقعد ؛ لأنه يذهب السكون ، فيجب أن يكون (زلزلوا) ههنا مجازا ، والمراد خوفوا ... »[1] .

ومما يدل على أنه يقصد من المجاز هنا الاستعارة أنه جعل (وزلزلوا) فى كتابه البلاغى من استعارة المحسوس للمعقول فقال : « .. فلفظة (زلزلوا) أبلغ من كل لفظ كان يعبر به عن غلظ ما نالهم »[2] .

وقد لاحظت أن هذه العبارة مأخوذة من قول الرمانى : « ... وهذا مستعار (وزلزلوا) أبلغ من كل لفظ كان يعبر به عن غلظ ما نالهم »[3] .

ومن الاستعارات التى أطلق عليها أنها مجاز ما ذكره عند قوله تعالى : ﴿ **وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ...** ﴾ [الزمر : ٧٤] .

فقد قال : الوارث يتصرف فيما يرثه كما يشاء من غير منازع ، ولا مدافع، فكذلك المؤمنون المتقون يتصرفون فى الجنة كيف شاءوا ، وأرادوا ، والمشابهة علة حسن المجاز ...[4] .

وقد صرح عند قوله تعالى : ﴿ **تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا** ﴾ [مريم : ٦٣] .

بأن (نورث) استعارة أى نبقى عليه الجنة ، كما نبقى على الوارث مال المورث ...[5] .

ثالثتها : أن يشير إلى أنها تشبيه فقد قال فى قوله تعالى : ﴿ **فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ** ﴾ [القصص : ٦٦] .

---

(١) المصدر نفسه ٣ ، ٢ / ٢٠ – ٢١ .
(٢) نهاية الإيجاز / ١٠١ .
(٣) النكت فى إعجاز القرآن / ٩٠ .
(٤) التفسير الكبير ١٤ ، ١ / ٢٤ .
(٥) المصدر نفسه ١١ ، ١ / ٢٣٨ .

« أى فصارت الأنباء كالعمى عليهم جميعا لا تهتدى إليهم ، فهم لا يتساءلون لا يسأل بعضهم بعضا ، كما يتساءل الناس فى المشكلات ؛ لأنهم يتساوون جميعا فى عمى الأنباء عليهم ، والعجز عن الجواب [١] .

وقد ذكر فى موطن آخر أن الفعل المضعف (فَعُمِّيَتْ) في قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ... ﴾ [هود : ٢٨] .

معناه ألبست ، وشبهت إذا كان مبنيا للمجهول ، والتبست ، واشتبهت إذا كان مبنيا للمعلوم ، وقد قرئ بهما ، وهذا يشعر أن فيه استعارة تبعية .

من أجل ذلك أضاف قائلا : واعلم أن الشئ إذا بقى مجهولا محضا أشبه المعمى ؛ لأن العلم نور البصيرة الباطنة ، والإبصار نور البصر الظاهر ؛ فحسن جعل كل واحد منها مجازا عن الآخر ، وتحقيقه أن البينة توصف بالإبصار قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً ﴾ [النمل : ١٣] . وكذلك توصف بالعمى[٢] قال تعالى : ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ ﴾ وقال فى هذه الآية ﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾[٣] .

وقد أيد الألوسى أن فى الفعل (فعميت) استعارة تبعية فقال :

« ... وهو من العمى ضد البصر ، والمراد به هنا الخفاء مجازا يقال : حجة عمياء ، كما يقال : مبصرة للواضحة ، وفى الكلام استعارة تبعية حيث شبه خفاء الدليل بالعمى فى أن كلا منهما يمنع الوصول إلي المقاصد » [٤] .

وجوز أيضًا أن يكون فى الفعل المذكور استعارة تمثيلية ، فأضاف قائلا : وجوز أن يكون هناك استعارة تمثيلية بأن شبه الذى لا يهتدى بالحجة لخفائها عليه بمن سلك مفازة لا يعرف طرقها ، واتبع دليلا أعمى فيها[٥] .

---

(١) المصدر نفسه ١٣ ، ١/ ٩ .

(٢) فى الطبعة الموجودة عندى (بالمعمى) والصواب (بالعمى) كما أثبته ، ينظر طبعة المطبعة الخيرية ٥ / ٥٢ .

(٣) التفسير الكبير ٩ ، ١/ ٢٢٢ .

(٤) روح المعانى ٤ ، ١٢/ ٣٩ .

(٥) السابق، الموضع نفسه .

رابعتها : أن يذكر المستعار له ، ويغفل بيان الاستعارة ، فلا يتعرض لها بشكل من الأشكال ، فمن ذلك ما ذكره عند قوله تعالى : ﴿ **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ...** ﴾ [الأنعام : ٣٨] .

فقد قال : قد يقول الرجل لعبده : طِرْ في حاجتي ، والمراد الإسراع ، وعلي هذا التقدير ، فقد يحصل الطيران لا بالجناح قال الحماسى :

..... طاروا إليه زرافات ووحدانا [١]

فذكر الجناح ، ليتمحض هذا الكلام في الطير [٢] .

ومنه ما قاله عند قوله تعالى : ﴿ **إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ** ﴾ [الحاقة : ١١] . فقد قال : «طغي الماء أي تجاوز حده حتي علا كل شئ ، وارتفع فوقه» [٣] .

وقد جعل هذه الاستعارة في كتابه البلاغى من استعارة المعقول للمحسوس فقال : «قوله تعالى : ﴿ **إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ** ﴾ المستعار منه المتكبر ، والمستعار له الماء، والجامع لهما الاستعلاء المضر» [٤] .

التبعية فى الفعل المضارع :

عرض الإمام الرازى للاستعارة التبعية في الفعل المضارع باعتبار حدثه ، ولم أعثر فى كلامه على استعارة واحدة – حسب جهدى – أوردها فى هذا الفعل باعتبار زمانه ، صرح فيها بأنها استعارة ،أو مجاز ، اللهم إلا إشارة خاطفة ذكرها عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ** ﴾ [الأنعام : ٧٥] .

فقد ساق فى الآية تساؤلا قال فيه : لقائل أن يقول : هذه الإراءة قد

---

(١) هذا عجز البيت وصدره : قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم . ينظر مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف ٤ / ١٣٢ في آخر الكشاف .

(٢) التفسير الكبير ٦ ، ٢ / ٢٢٣ . (٣) المصدر نفسه ١٥ ، ٢ / ١٠٦ .

(٤) نهاية الإيجاز / ١٠١ – ١٠٢ .

حصلت فيما تقدم من الزمان ، فكان الأولى أن يقال : وكذلك أرينا إبراهيم ملكوت السموات والأرض ، فَلِمَ عدل عن هذه اللفظة إلى قوله : (وكذلك نرى) ؟ (١) .

وأجاب عنه ببعض الوجوه منها : أن يكون تقدير الآية : وكذلك كنا نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ؛ فيكون هذا على سبيل الحكاية عن الماضى ، والمعنى أنه تعالى لما حكى عنه أنه شافه أباه الكلام (٢) الخشن تعصبا للدين الحق، فكأنه قيل : وكيف بلغ إبراهيم هذا المبلغ العظيم فى قوة الدين فأجيب : بأنا كنا نريه ملكوت السموات والأرض من وقت طفوليته لأجل أن يصير من الموقنين زمان بلوغه (٣) .

ولعل السبب فى عدم توسعه فى تناول الاستعارة فى المضارع باعتبار زمانه – والله أعلم – يرجع إلى قلة الآيات الكريمة التى عبرت عن الماضى بالمضارع بالنسبة إلي الأخرى التى عبرت عن المستقبل بالماضى ، وقد جاء كلامه فى تبعية المضارع باعتبار حدثه – جريا على عادته – في عدة مظاهر :

أحدهما : أن يذكر لفظ الاستعارة ، أو ما اشتق منه، فمن ذلك ما ذكره عن استعارة الفعل (ترى) لـ (تعلم) والفعل (ننظر) لـ (نعلم) أيضًا لمشابهة العلم اليقينى للرؤية ، والنظر . أما استعارة (ترى) لـ (تعلم) فقد ذكرها عند قوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ ...** ﴾ [النساء: ٤٤]

فقد قال : « قوله : ﴿ **أَلَمْ تَرَ** ﴾ معناه: ألم ينته علمك إلى هؤلاء... وحاصل الكلام أن العلم اليقينى يشبه الرؤية، فيجور جعل الرؤية استعارة عن مثل هذا العلم » (٤) .

---

(١) التفسير الكبير ٧ ، ١ / ٤٤ .

(٢) لعل صحة التعبير (شافه أباه بالكلام) بجر لفظة (الكلام) بالباء ففى أساس البلاغة : شافهته بحديثى . بتعديه شافه إلى (الكلام) بحرف الجر (الباء) مادة (شفه) .

(٣) التفسير الكبير ٧ ، ١ / ٤٤ . (٤) المصدر نفسه ٥ ، ٢ / ١١٨ .

وقد كرر هذا المعنى فى بعض المواضع دون أن يشير إلى استعارة أو مجاز، فقال عند قوله تعالى: ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ** ﴾ [النساء: ١٠٥].

«اعلم أنه ثبت... أن قوله ﴿ **بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ** ﴾ معناه: بما أعلمك الله، وسمى ذلك العلم بالرؤية؛ لأن العلم اليقينى المبرأ عن جهات الريب يكون جاريا مجرى الرؤية فى القوة والظهور...» (١).

وقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ** ﴾ [الفجر:٦].

« ﴿ **أَلَمْ تَرَ** ﴾ ألم تعلم؛ لأن ذلك مما لا يصح أن يراه الرسول - ﷺ - وإنما أطلق لفظ الرؤية ههنا على العلم، وذلك لأن أخبار عاد، وثمود، وفرعون كانت منقولة بالتواتر، أما عاد وثمود، فقد كانا فى بلاد العرب، وأما فرعون، فقد كانوا يسمعونه من أهل الكتاب، وبلاد فرعون أيضًا متصلة بأرض العرب، وخبر التواتر يفيد العلم الضرورى، والعلم الضرورى جار مجرى الرؤية فى القوة، والجلاء والبعد عن الشبهة؛ فلذلك قال: (ألم تر) بمعنى ألم تعلم (٢)».

وأما استعارة ننظر لـ (تعلم) فقد ذكرها عند قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ** ﴾ [يونس: ١٤].

فقد قال فى ذلك: «كيف جاز النظر على الله تعالي(٣)، وفيه معنى المقابلة؟ والجواب: أنه استعير لفظ النظر للعلم الحقيقى الذى لا يتطرق الشك إليه، وشبه هذا العلم بنظر الناظر وعيان المعاين (٤)».

وقد لاحظت أن ما كتبه فى الاستعارة الأخيرة منقول عن الكشاف بتصرف لا يذكر، فقد جاء فيه: ... فإن قلت: كيف جاز النظر على الله تعالى، وفيه

---

(١) المصدر نفسه ٦، ١/٣٣.
(٢) المصدر نفسه ١٦، ١/١٦٦ - ١٦٧.
(٣) فى التفسير (النظر إلى الله) والصواب ما أثبته: لأن النظر فى الآية من الله لا إليه، ولعله خطأ من النساخ، أو خطأ مطبعى، وقد جاءت فى الكشاف كلمة (على) بدلا من (إلى).
(٤) التفسير الكبير / ٩، ١/٥٧.

معنى المقابلة ؟ قلت : هو مستعار للعلم المحقق الذى هو العلم بالشئ موجودا ، شبه بنظر الناظر ، وعيان المعاين فى تحققه [١] .

ومن المواضع التي ذكر فيها أن الفعل المضارع مستعار ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ . . .** ﴾ [التوبة : ٣٤]

فقد ذكر أن (يأكلون) مستعار لـ (يأخذون) فقال : « إنه تعالى عبر عن أخذ الأموال بالأكل ، وهو قوله : (ليأكلون) والسبب فى هذه الاستعارة أن المقصود الأعظم من جمع الأموال هو الأكل ، فسمى الشئ باسم ما هو أعظم مقاصده ، أو يقال من أكل شيئا ، فقد ضمنه [٢] إلى نفسه ، ومنعه من الوصول إلي غيره ، ومن جمع المال ، فقد ضم تلك الأموال إلي نفسه ، ومنعها من الوصول إلي غيره ، فلما حصلت المشابهة بين الأكل ، وبين الأخذ من هذا الوجه، سمى الأخذ بالأكل . . . [٣] .

وقد يكون مفيدا هنا أن أشير إلي أنه يفهم من كلامه فى بعض المواضع أن (تأكلوا) مجاز مرسل عن جميع التصرفات المالية ، وعبر بالأكل لأنه معظم المقصود من المال ، فقد قال عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً** ﴾ [النساء : ٢] .

« . . . واعلم أنه تعالي وإن ذكر الأكل فالمراد به التصرف ؛ لأن أكل مال اليتيم كما يحرم فكذا سائر التصرفات المهلكة لتلك الأموال محرمة ، والدليل عليه أن فى المال ما لا يصح أن يؤكل ، فثبت أن المراد منه التصرف ، وإنما ذكر الأكل لأنه معظم ما يقع لأجله التصرف[٤] . ولا ضير فى هذا ، فقد سبق فى هذا البحث أن المجاز اللغوى يمكن أن يكون استعارة أو مجازا مرسلا ، حسب قصد العلاقة فيهما .

---

(١) الكشاف ٢ / ١٨٣ .
(٢) لعل هذه الكلمة (ضمه) بدليل ما بعدها .
(٣) التفسير الكبير ٨ ، ٢ / ٤٣ .
(٤) المصدر نفسه ٥ ، ١ / ١٧٦ .

ثانيها : أن يعبر عن الاستعارة بالمجاز ، فمن ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : ﴿**الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ**﴾ [البقرة : ٤٦] .

فقد أورد فى (يظنون) قولين أحدهما : أن الظن بمعنى العلم قالوا : لأن الظن ، وهو الاعتقاد الذى يقارنه تجويز النقيض ، يقتضى أن يكون صاحبه غير جازم بيوم القيامة ، وذلك كفر ، والله تعالى مدح على هذا الظن ، والمدح علي الكفر غير جائز ؛ فوجب أن يكون المراد من الظن ههنا العلم ، وسبب هذا المجاز أن العلم ، والظن يشتركان فى كون كل واحد منهما اعتقادا راجحا إلا أن العلم راجح مانع من النقيض ، والظن راجح غير مانع من النقيض ، فلما اشتبها من هذا الوجه ، صح إطلاق اسم أحدهما على الآخر ، قال أوس بن حجر :

فأرسلته مستيقن الظن أنه مخالط ما بين الشراسيف خائف [١]

وقال تعالى : ﴿**إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ**﴾ [الحاقة : ٢٠] ، وقال : ﴿**أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ**﴾ [المطففين : ٤] . ذكر الله تعالى ذلك إنكارا عليهم ، وبعثا على الظن ، ولا يجوز أن يبعثهم على الاعتقاد المجوز للنقيض ، فثبت أن المراد بالظن ههنا العلم [٢] .

ومن إطلاق المجاز على الاستعارة أيضًا ما ذكره عند قوله تعالى : ﴿**وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ ...**﴾ [البقرة : ١٤٣] ، فقد قال : ﴿**إِلَّا لِنَعْلَمَ**﴾ معناه : إلا لنرى ، ومجاز هذا أن العرب تضع العلم مكان الرؤية ، والرؤية مكان العلم كقوله : ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ**﴾ [الفجر : ٦ والفيل : ١] ورأيت وعلمت ، وشهدت ألفاظ متعاقبة [٣] .

وقد مر في حديثه الذى ذكرته آنفا أن الرؤية تستعار للعلم ، وأشار هنا إلى أن العلم يستعار للرؤية .

---

(١) الشراسيف – أطراف أضلاع الصدر التى تشرف على البطن ، ومن معانى الشرسوف البعير المقيد ، والأسير المكتوف ينظر لسان العرب مادة : (شرسف) .

(٢) التفسير الكبير ٢ ، ١ / ٥٣ . (٣) المصدر نفسه ٢ ، ٢ / ١١٥ .

ومن هذا النوع ما ذكره عند قوله تعالى : ﴿ **قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ** ﴾ [سبأ : ٢٦] . فقد قال : وقوله (يفتح) قيل : معناه يحكم ، ويمكن أن يقال : بأن الفتح ههنا مجاز ، وذلك لأن الباب المغلق ، والمنفذ المسدود يقال فيه : فتحه على طريق الحقيقة ، ثم إن الأمر إذا كان فيه انغلاق وعدم وصول إليه فإذا بينه أحد يكون قد فتحه [١] .

ولا شك أن العلاقة واضحة بين الباب المغلق ، والأمر المستغلق .

ثالثها : أن يعبر عن الاستعارة بالتشبيه الذى هو أصلها فقد قال عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ...** ﴾ [البقرة : ١٨٨] .

« الإدلاء مأخوذ من إدلاء الدلو ، وهو إرسالك إياها في البئر للاستقاء ، يقال : أدليت دلوى أدليها إدلاء ، فإذا استخرجتها ، قلت : دلوتها ، قال تعالى : ﴿ **فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ** ﴾ [يوسف : ١٩] . ثم جعل كل إلقاء قول ، أو فعل إدلاء ، ومنه يقال للمحتج : أدلى بحجته ، كأنه يرسلها ليصير إلي مراده كإدلاء المستقى الدلو ؛ ليصل إلى مطلوبه من الماء ، وفلان يدلى إلى الميت بقرابة ، أو رحم ، إذا كان منتسبا إليه ، فيطلب الميراث بتلك النسبة طلب المستحق بالدلو الماء ، إذا عرفت هذا ، فنقول : إنه داخل في حكم النهى ، والتقدير : ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، ولا تدلوا إلي الحكام ، أي لا ترشوها إليهم ، لتأكلوا طائفة من أموال الناس بالباطل [٢] .

وأضاف الإمام الرازى قائلا : وفي تشبيه الرشوة بالإدلاء وجهان : أحدهما : أن الرشوة رشاء الحاجة ، فكما أن الدلو المملوء من الماء يصل من البعيد إلي القريب بواسطة الرشاء ، فالمقصود البعيد يصير قريبا بسبب الرشوة . والثانى : أن

---

(١) المصدر نفسه ١٣ ، ١ / ٢٥٨ . (٢) التفسير الكبير ٣ ، ١ / ١٢٧ – ١٢٨ .

الحاكم بسبب أخذ الرشوة يمضى فى ذلك الحكم من غير تثبت كمضى الدلو فى الإرسال ... [1] .

وواضح أنه ليس فى الآية تشبيه اصطلاحى ، وإنما هو يقصد التشبيه الذى بنيت عليه الاستعارة التى بينها فى الآية .

ومن هذا القبيل ما ذكره حول استعارة (يتوفاكم) لـ (ينيمكم) فى قوله تعالى : ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ...** ﴾ [الأنعام: ٦٠] .

فقد قال :« ... فأما قوله : ﴿ **الَّذِي يَتَوَفَّاكُم** ﴾ فالمعنى : أنه تعالى ينيمكم فيتوفى أنفسكم التى بها تقدرون على الإدراك ، والتمييز ، كما قال – جل جلاله – : ﴿ **اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى** ﴾ [الزمر : ٤٢] . فالله – جل جلاله – يقبض الأرواح عن التصرف بالنوم ، كما يقبضها بالموت وههنا بحث ، وهو أن النائم لا شك أنه حى ، ومتى كان حيا ، لم تكن روحه مقبوضة البتة ، وإذا كان كذلك ، لم يصح أن يقال : إن الله توفاه فلابد ههنا من تأويل ، وهو أن حال النوم تغور الأرواح الحساسة من الظاهر فى الباطن ، فصارت الحواس الظاهرة معطلة عن أعمالها ، فعند النوم صار ظاهر الجسد معطلا عن بعض الأعمال ، وعند الموت صارت جملة البدن معطلة عن كل الأعمال ، فحصل بين النوم ، وبين الموت مشابهة من هذا الاعتبار ، فصح إطلاق لفظ الوفاة ، والموت على النوم من هذا الوجه [2] .

ومن إطلاق التشبيه على الاستعارة ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ** ﴾ [الأنبياء : ١٢] .

فقد قال فى هذه الآية : « ... وأما قوله تعالى : ﴿ **فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا ...** ﴾ فالمعنى : لما علموا شدة عذابنا ، وبطشنا علم حس ، ومشاهدة ، ركضوا فى

---

(١) المصدر نفسه ٣ ، ١/١٢٨ .

(٢) المصدر نفسه ٧ ، ١/١٣ .

ديارهم ، والركض ضرب الدابة بالرجل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ﴾ [ص : ٤٢] . فيجوز أن يكونوا ركبوا دوابهم يركضونها هاربين منهزمين من قريتهم لما أدركتهم مقدمة العذاب ، ويجوز أن يشبهوا فى سرعة عدوهم على أرجلهم بالراكبين الراكضيين (١) .

وواضح أنه على الرأي الثانى جعل (يركضون) استعارة لعدوهم السريع ، وسمى هذه الاستعارة تشبيها ؛ لأنها مبنية عليه .

ومن إطلاق التشبيه على الاستعارة كذلك ما قاله فى قوله تعالى : ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : ٤٠] .

فقد قال فى استعارة (يسبحون) لـ (يسيرون) : فشبه ذلك السير وتلك الحركة بالسباحة فى الماء ، والمقصود التنبيه على سرعتها ، وسهولتها ، وكمال إيصالها (٢) .

وقد زاد الشريف الرضى أمر هذه الاستعارة وضوحا عندما تكلم عنها فى قوله تعالي : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٣] .

فقال : « وهذه استعارة ؛ لأن أصل السبح هو التقلب ، والانتشار فى الأرض، ومنه السباحة في الماء ، ولا يكون ذلك إلا من حيوان يتصرف ، ولكن الله سبحانه لما جعل الليل ، والنهار ، والشمس ، والقمر مسخرة للتقلب فى هذا الفلك الدائر والصفيح (٣) السائر تتعاقب فيه ، وتتغاير ، وتتقارب وتتباعد حسن أن يعبر عنها بما يعبر به عن الحيوان المتصرف ... (٤) .

---

(١) المصدر نفسه ١١ / ٢ / ١٤٦ . (٢) المصدر نفسه ٧ ، ٢ / ١٢٣ .

(٣) فى لسان العرب (.. ويقال للحجارة العريضة : صفائح ، واحدتها صفيحة ، وصفيح) ولعله يقصد من (الصفيح) مدار هذه الأشياء التى سخرها الله مادة (صفح) .

(٤) تلخيص البيان في مجازات القرآن / ٢٢٩ .

التبعية فى فعل الأمر :

أشار الإمام الرازى إلي الاستعارة التبعية فى فعل الأمر ، وكانت إشارته إليها سريعة ، فلم يذكرها إلا فى النزر القليل من المواطن ، فقد قال عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ** ﴾ [القمر : ٤٨] .

وقوله تعالي : ﴿ **ذُوقُوا** ﴾ استعارة ، وفيه حكمة ، وهو أن الذوق من جملة الإدراكات ، فإن المذوق إذا لاقى اللسان يدرك أيضًا حرارته ، وبرودته ، وخشونته، وملاسته ، كما يدرك سائر أعضائه الحسية ، ويدرك أيضًا طعمه ، ولا يدركه غير اللسان ، فإدراك اللسان أتم ، فإذا تأذى من نار تأذى بحرارته ، ومرارته إن كان الحار ، أو غيره لا يتأذى إلا بحرارته ، فإذن الذوق إدراك لمسى أتم من غيره فى الملموسات ، فقال (ذوقوا) إشارة إلي أن إدراكهم بالذوق أتم الإدراكات ، فيجتمع فى العذاب شدته ، وإيلامه بطول مدته ودوامه ، ويكون المدرك له لا عذر له يشغله ، وإنما هو على أتم ما يكون من الإدراك ، فيحصل الألم العظيم[١] .

ويفهم من كلامه فى بعض المواضع أن الذوق إذا كان بعيدا عن مطعومات اللسان كان استعارة ، وإن عبر عنها بالمجاز فقد قال عند قوله تعالى : ﴿ **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ...** ﴾ [الأنبياء : ٣٥] .

« الذوق ههنا لا يمكن إجراؤه على ظاهره ؛ لأن الموت ليس من جنس المطعوم حتى يذاق ، بل الذوق إدراك خاص ، فيجوز جعله مجازا عن أصل الإدراك ، وأما الموت ، فالمراد منه ههنا مقدماته من الآلام العظيمة ؛ لأن الموت قبل دخوله فى الوجود يمتنع إدراكه ، وحال وجوده يصير الشخص ميتا ، والميت لا يدرك شيئا[٢] .

وقد صرح بعضهم بأن « الذوق الحقيقى إدراك طعوم المطعومات ، ثم تجوز

---

(١) التفسير الكبير ١٥ ، ١ / ٧٢ . (٢) المصدر نفسه ١١ ، ٢ / ١٦٩ .

به عن إدراك ألم المؤلمات ، وضرر المضرات ، وخزى المخزيات ، فهو مجاز تشبيهى[1] .

وفى موطن آخر ذكر الإمام الرازى الاستعارة فى فعل الأمر ، وسماها تشبيبها – على عادته – فقال عند قوله تعالى : ﴿ **رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ** ﴾ [الأعراف : ١٢٦] .

معنى الإفراغ فى اللغة الصب يقال : درهم مفرغ إذا كان مصبوبا فى قالبه ، وليس [2] بمضروب ، وأصله من إفراغ الإناء وهو صب ما فيه حتى يخلو الإناء ، وهو من الفراغ ، فاستعمل فى الصب علي التشبيه بحال إفراغ الإناء [3] .

ومما يؤيد أن الاستعارة فى (أفرغ) تبعية عنده أنه قال فى كتابه البلاغى : وقوله ﴿ **أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا** ﴾ أفرغ مستعار [4] .

وقد ذكر فى موضع مماثل عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ...** ﴾ [البقرة : ٢٥٠] .

جمال التعبير بـ (أفرغ) وما فيه من مبالغة فقال بعد أن شرح معني الإفراغ فى اللغة : « ... إذا عرفت هذا فنقول : قوله : ﴿ **أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا** ﴾ يدل على المبالغة فى طلب الصبر من وجهين : أحدهما أنه إذا صب الشئ في الشئ ، فقد أثبت فيه بحيث لا يزول عنه ، وهذا يدل على التأكيد ، والثانى : أن إفراغ الإناء هو إخلاؤه وذلك يكون بصب كل ما فيه ، فمعنى ﴿ **أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا** ﴾ أي اصبب علينا أتم صب ، وأبلغه [5] » .

وقد يكون من المفيد هنا أن أسجل ملاحظة طيبة أبداها الدكتور أحمد بدوى – رحمه الله – حول اختيار القرآن الكريم للفعل (أفرغ) عند حديثه عن

---

(١) الإشارة إلي الإيجاز فى بعض أنواع المجاز / ١٣٣ .

(٢) فى التفسير (وبيس) بمضروب ، وهو خطأ مطبعى ، والصواب ما أثبته .

(٣) التفسير الكبير ٧ ، ٢ / ٢١٨ .

(٤) نهاية الإيجاز / ١٠١ .

(٥) التفسير الكبير ٣ ، ٢ / ٢٠١ .

طلب الصبر فقال : ... وتأمل جمال (أفرغ) فى قوله سبحانه : ﴿ **رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً** ﴾ وما يثيره فى نفسك من الطمأنينة التى يحس بها من هدأ جسمه بماء يلقى عليه وهذه الراحة تشبهها تلك الراحة النفسية ، ينالها من منح هبة الصبر الجميل ، ومن الدقة القرآنية فى استخدام الألفاظ المستعارة أنه استخدم (أفرغ) وهى توحى باللين ، والرفق عند حديثه عن الصبر ، وهو من رحمته ، فإذا جاء إلي العذاب استخدم كلمة (صب) فقال : ﴿ **فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ** ﴾ [الفجر : ١٣] وهي مؤذنه بالشدة والقوة معًا [١] .

وقد تبين لى أن أحد الباحثين نقل هذه الملاحظة بحذافيرها دون أن يشير في صلب كتابه ، أو فى هامشه إلي إفادته من الدكتور أحمد بدوى وحتى لايبدو أن هذا إرسال للكلام علي عواهنه ، فإننى أورد كلامه كما جاء في كتابه ؛ ليكون ما أبديته صادرا عن بينة يقول :

« ... ولنتأمل جمال (أفرغ) فى قوله سبحانه ﴿ **رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً** ﴾ وما يثيره فى النفس من الطمأنينة التى يحس بها من هدأ جسمه بما يلقى عليه ، وهذه الراحة تشبهها تلك الراحة النفسية ، ينالها من منح هبة الصبر الجميل ، ومن الدقة القرآنية في استخدام الألفاظ المستعارة أنه استخدم (أفرغ) وهى توحى باللين والرفق عند حديثه عن الصبر ، وهو من رحمته ، فإذا جاء إلى العذاب استخدم كلمة (صب) فقال : ﴿ **فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ** ﴾ وهى مؤذنة بالشدة والقوة معا [٢] .

ولا يعيب الباحث أو المؤلف أن ينقل ما يشاء من أي مصدر يريد ، ولكن العيب أن يغمط العلماء حقوقهمّ ، فينسب فضلهم ، وعلمهم إلى سواهم .

---

(١) من بلاغة القرآن / ٢١٩ – ٢٢٠ .

(٢) التعبير الفنى فى القرآن الكريم ، للدكتور بكرى شيخ أمين / ١٩٨ – ١٩٩ .

الاستعارة التهكمية :

وردت الاستعارة التهكمية فى فعل الأمر، وفى غيره، ولكنى فضلت ذكرها بعد الاستعارة فى فعل الأمر؛ لأن أشهر الاستعارات التهكمية جاءت فى فعل الأمر، مثل قوله تعالى: ﴿ **فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ [آل عمران: ٢١ ، والتوبة: ٣٤، والانشقاق: ٢٤].

وقد تناول الإمام الرازى هذه الاستعارة فى مواطن كثيرة، تمثلت فى عدة مظاهر:

الأول – أن يصرح بأنها استعارة .

الثانى – أن يكتفى بالإشارة إلى أن فى الكلام تهكما .

الثالث – أن ينظّرها بأمثلة اشتهرت بأنها من التهكم .

أولا – بالنسبة للمظهر الأول، فقد وجدت أنه صرح بأنها استعارة فى بعض المواضع، فقد قال عند تفسير قوله تعالى: ﴿ **فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ [آل عمران:٢١] .

« هذا محمول على الاستعارة، وهو أن إنذار هؤلاء بالعذاب قائم مقام بشرى المحسنين بالنعيم . . . » (١) .

وبناء على ما ذكره يكون معنى (بشرهم) أنذرهم « استعيرت البشارة التى هى الإخبار بما يظهر سرور المخبر به للإنذار الذى هو ضدها بإدخاله فى جنسها على سبيل التهكم » (٢) .

وقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿ **أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ** ﴾ [الصافات: ٦٢]

« . . . وأصل النزل الفضل الواسع فى الطعام يقال: طعام كثير النزل، فاستعير للحاصل من الشىء، ويقال: أرسل الأمير إلى فلان نزلا، وهو الشىء

---

(١) التفسير الكبير : ٤ – ١ / ٢٣٣ .

(٢) المطول : ٣٦٥ .

الذى يصلح حال من ينزل بسببه، إذا عرفت هذا، فنقول: حاصل الرزق المعلوم لأهل الجنة اللذة، والسرور، وحاصل شجرة الزقوم الألم، والغم، ومعلوم أنه لا نسبة لأحدهما إلى الآخر فى الخيرية، إلا أنه جاء هذا الكلام، إما على سبيل السخرية بهم، أو لأجل أن المؤمنين لما اختاروا ما أوصلهم إلى الرزق الكريم، والكافرين اختاروا ما أوصلهم إلى العذاب الأليم، فقيل لهم: ذلك توبيخا لهم على سوء اختيارهم» (١).

موقفه من التبشير بالشر - مثلا - :

أود قبل مواصلة الحديث عن الاستعارة التهكمية أن أشير إلى موقفه من التبشير بالشر - مثلا - من حيث اللغة، وأرجو ألا يكون ذلك خروجا عن الموضوع؛ لأننا بحاجة إلى معرفة هذا الموقف، حتى يتبين لنا متى يكون التبشير حقيقة؟ ومتى يكون مجازا؟

فقد جمعت ما تفرق من كلامه فى هذا الشأن، وأنعمت فيه النظر، فوجدته لم يثبت على رأى واحد، فقد قال فى أوائل تفسيره عند قوله تعالى: ﴿ ...**وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ**... ﴾ [البقرة: ٢٥].

«ما البشارة؟ الجواب: أنها الخبر الذى يظهر السرور، ولهذا قال الفقهاء: إذا قال لعبيده: أيكم بشرنى بقدوم فلان، فهو حر، فبشروه فرادى، عتق أولهم. لأنه هو الذى أفاد خبره السرور، ولو قال مكان بشرنى: أخبرنى عتقوا جميعا؛ لأنهم جميعا أخبروه، ومنه البشرة لظاهر الجلد وتباشير الصبح ما ظهر من أوائل ضوئه، وأما ﴿ **فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ فمن الكلام الذى يقصد به الاستهزاء الزائد فى غيظ المستهزأ به، كما يقول الرجل لعدوه: أبشر بقتل ذريتك، ونهب مالك» (٢).

وهذا الكلام الذى نقل معظمه عن الكشاف (٣) يتضمن أمرين:

---

(١) التفسير الكبير: ١٣ - ٢/١٤١. (٢) التفسير الكبير: ١ - ٢/١٣٨.
(٣) الكشاف ١/٥١.

١ – أن التبشير عند إطلاقه يحمل على الخبر السار.

٢ – وعند التقييد يحمل على ما قيد به من سرور، أو إساءة، فمثال التقييد بالمسيء ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ومثال التقييد بالسار قوله تعالى: ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ [يس: ١١].

ويؤيد هذا الاتجاه ما جاء في لسان العرب « ... والبشارة المطلقة لا تكون إلا بالخير، وإنما تكون بالشر إذا كانت مقيدة كقوله تعالى: ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (١).

وقد سار على هذه الرؤية التي ارتآها في بعض المواضع، فقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء:١٣٨].

« واعلم أن من حمل الآية المتقدمة (٢) على المنافقين قال: إنه تعالى بين أنه لا يغفر لهم كفرهم، ولا يهديهم إلى الجنة ثم قال: وكما لا يوصلهم إلى دار الثواب، فإنه مع ذلك يوصلهم إلى أعظم أنواع العقاب، وهو المراد من قوله: ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ وقوله: ﴿ بَشِّرِ ﴾ تهكم بهم، والعرب تقول: تحيتك الضرب، وعتابك السيف » (٣).

ومما يدل على أنه يعتبر البشارة بالعذاب استعارة تهكمية أنه جعلها مقياسا لكثير من الاستعارات المشابهة – كما سيجيء في كلامه لاحقا – إن شاء الله –.

ولكنه خالف قوله السابق في بعض المواضع، فجعل التبشير في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [النحل: ٥٨].

حقيقة في الخبر السار، والخبر المحزن مع أن التبشير في الآية غير مقيد بالعذاب، أو نحوه يقول في ذلك: « التبشير في عرف اللغة مختص بالخبر الذي

---

(١) لسان العرب مادة ﴿ بَشِّرِ ﴾.

(٢) هي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ١٣٧].

(٣) التفسير الكبير: ٦ – ١/ ٨١.

يفيد السرور إلا أنه بحسب أصل اللغة عبارة عن الخبر الذى يؤثر فى تغير بشرة الوجه، ومعلوم أن السرور كما يوجب تغير البشرة، فكذلك الحزن يوجبه، فوجب أن يكون لفظه التبشير حقيقة فى القسمين، ويتأكد هذا بقوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ومنهم من قال: المراد بالتبشير ههنا الإخبار، والقول الأول أدخل فى التحقيق»[1].

فنراه قد فرق بين التبشير فى عرف اللغة، والتبشير فى أصل اللغة، فجعله فى عرف اللغة مختصا بالخبر الذى يفيد السرور، وجعله فى أصل اللغة دالا على الخبر الذى يؤثر فى تغير البشرة وهذا يشمل الخبرين: السار، والمسىء، وأوجب أن تكون لفظة التبشير حقيقة فى القسمين – أعنى الخبر السار، والخبر المسىء – وقال: إنه أدخل فى التحقيق.

ولعل الذى حمله على جعل التبشير حقيقة في الخبرين هنا أنه وجد من بشر بالأنثى سىء بهذا التبشير، وَجَلَّلَهُ الأسى، والحزن، فاعتبر التبشير بها من الأخبار التى تسوء من نزلت بساحته، وهذا المعنى – إن كان يقصده – فإنه يمكن مناقشته بأن الآية إخبار من الله عن بعض الجاهليين، ولا يتأتى أن يكون التبشير بالأنثى فى كلام الله شرا، بل على العكس من ذلك، لو جعل التبشير فى الآية خيرا، لكان أليق بكلامه. جل جلاله.

وانما جاء السوء لهذا الجاهلى من داخل نفسه لا من خارجها على حد قول القائل:

ومن يك ذافمٍ مُرّ مريض يجد مرا به الماء الزلالا

وخالف أيضا ما ذكره أولا عند قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤].

فقال: «واعلم أنه تعالى لما ذكر الذين يكنزون الذهب، والفضة قال: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أى فأخبرهم على سبيل التهكم؛ لأن الذين يكنزون الذهب، والفضة إنما يكنزونهما ليتوصلوا بهما إلى تحصيل الفرج

(١) المصدر نفسه: ١٠ – ٢/٥٦.

يوم الحاجة، فقيل: هذا هو الفرج، كما يقال: تحيتهم ليس إلا الضرب. وإكرامهم ليس إلا الشتم، وأيضا فالبشارة عن الخير الذى يؤثر فى القلب، فيتغير بسببه لون بشرة الوجه، وهذا يتناول ما إذا تغيرت البشرة بسبب الفرج، أو بسبب الغم» (١).

ويبدو أن ما ذكره فى نهاية حديثه عن تغير البشرة بسبب الفرج استطراد لا تعلق له بالآية التى نحن بصددها؛ لأن التبشير فيها مقيد بالعذاب، وقد جعله من قبيل التهكم.

ومن الواضح أن التبشير إن جعل حقيقة فى الخبر السار، والخبر المسىء كان مستعملا فى معناه الأصلى، ولا استعارة فيه، وإن جعل مستعملا فى الخبر السار عند الإطلاق، والخبر المسىء عند التقييد بالعذاب كان فى الصورة الأخيرة استعارة تهكمية.

ونعود بعد ذلك إلى حديثه عن الاستعارة التهكمية فنذكر:

ثانيا: بالنسبة للمظهر الثانى الذى يكتفى فيه بالإشارة إلى أن فى الكلام تهكما، فقد ذكره فى بعض المواضع، فقال عند تفسير قوله تعالى:

﴿ **الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ** ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

«الوعد يستعمل في الخير، والشر، قال الله تعالى: ﴿ **النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ [الحج: ٧٢] ويمكن أن يكون هذا محمولا على التهكم، كما فى قوله: ﴿ **فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ (٢).

وقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿ **... فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ** ﴾ [آل عمران: ١٥٣].

لفظ الثواب لا يستعمل فى الأغلب إلا فى الخير، ويجوز أيضا استعماله فى الشر؛ لأنه مأخوذ من قولهم: ثاب إليه عقله، أى رجع إليه، قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ** ﴾ ... وأصل الثواب كل ما يعود إلى الفاعل من جزاء

---

(١) المصدر نفسه: ٨ - ٢/٤٩.

(٢) المصدر نفسه: ٤ - ١/٦٩.

فعله، سواء كان خيرا، أو شرا، إلا أنه بحسب العرف اختص لفظ الثواب بالخير، فإن حملنا لفظ الثواب ههنا على أصل اللغة استقام الكلام، وإن حملناه على مقتضى العرف، كان ذلك واردا على سبيل التهكم، كما يقال: تحيتك الضرب، وعتابك السيف، أى جعل الغم مكان ما يرجون من الثواب، قال تعالى: ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ...» (١).

وواضح من كلامه حول (الإثابة) فى الآية السابقة أنها حقيقة، إن حمل هذا اللفظ على أصل اللغة، ومجاز من قبيل الاستعارة التهكمية إن حمل على مقتضى العرف اللغوى.

على حين جعل الفراء (الإثابة) فى الآية نفسها، بمعنى العقاب قولا واحدا، أى أنها من قبيل الاستعارة التهكمية كما يدل على ذلك كلامه فقد قال: وقوله: ﴿ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ ﴾ الإثابة ههنا فى معنى عقاب ولكنه كما قال الشاعر:

أخاف زِيَاداً أن يكون عطـــاؤه أداهم سودا أو مُحَدرَجَةً سُمْرًا (٢)

وقد يقول الرجل الذى قد اجترم إليك: لئن أتيتنى، لأثيبنك ثوابك معناه: لأعاقبنك، وربما أنكره من لا يعرف مذاهب العربية، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ والبشارة إنما تكون فى الخير، فقد قيل ذاك فى الشر»(٣).

ثالثا: وبالنسبة للمظهر الثالث الذى ينظر فيه الاستعارة التهكمية بأمثلة اشتهرت بالتهكم، فقد ذكره فى بعض المواضع، فقال فى قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ... ﴾ [المائد: ٦٠]

«... فإن قيل المثوبة مختصة بالإحسان، فكيف جاءت فى الإساءة؟

---

(١) المصدر نفسه: ٥ - ١/٤٢.

(٢) (زيادا) هو زياد ابن أبيه، كان قد توعد الفرزدق، ثم رضى عنه. الأداهم - جمع أدهم، وهو القيد، والمحدرجة - السياط التى أحكم فتلها. ينظر هامش معانى القرآن، للفراء ١/٢٣٩، ولسان العرب مادة (حدرج)، والبحر المحيط لأبى حيان ٣/٨٣.

(٣) معانى القرآن، للفراء ١/٢٣٩.

قلنا: على طريقة قوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]. وقول الشاعر:

..... تحية بينهم ضرب وجيع »[١].

وقد لاحظت أن كلامه فى هذه الآية منقول عن الكشاف[٢] بتصرف قليل.

وقال فى قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً﴾ [الكهف: ١٠٢]

« ... وفى النزل قولان:

الأول: قال الزجاج: إنه المأوى، والمنزل.

والثانى: أنه الذى يقام للنزيل، وهو الضيف، ونظيره قوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٣].

وقال فى قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ * وَلا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ﴾ [الحاقة: ٣٥ - ٣٦]

« الطعام ما هييء للأكل، فلما هييء الصديد ليأكله أهل النار، كان طعاما لهم، ويجوز أن يكون المعنى أن ذلك أقيم لهم مقام الطعام فسمى طعاما، كما قال:

* تحية بينهم ضرب وجيع *

والتحية لا تكون ضربا، إلا أنه لما أقيم مقامه جاز أن يسمى به »[٤].

الإمام الرازى ومصطلح العنادية:

ذكر الدكتور شوقى ضيف أن الإمام الرازى هو الذى أطلق على الاستعارة

---

(١) هذا عجز بيت، صدره: وخيل قد دلفت لها بخيل. فجعل الضرب الوجيع تحية أى قائما مقامها، الاستغناء فى أحكام الاستثناء: ٤٤٨ - ٤٤٩، التفسير الكبير: ٦ - ٢/٣٨ - ٣٩.

(٢) ينظر الكشاف ١/٣٤٨.

(٣) التفسير الكبير: ١١ - ١/١٧٥.

(٤) المصدر نفسه ١٥ - ٢/١١٦.

العنادية هذا المصطلح الذى عرفت به، فقال: « ... ويقف [1] بإزاء ما سماه الزمخشرى استعارة النقيض للنقيض فى مثل استعارة الموت للجهل، ومثل الآية الكريمة ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ويضع لهذه الاستعارة مصطلحها الذى شاع بعده، إذ سماها عنادية » [2].

وقد ردد بعض الباحثين هذا الكلام دون الإشارة إلى صاحبه قائلا:

« ورأيت الرازى بعد أن انتهى من تعريفه الاستعارة المكنية فارقا بينها وبين التصريحية على هذه الشاكلة، رأيته يقف بإزاء ما سْماه الزمخشرى استعارة النقيض للنقيض فى مثل استعارة الموت للجهل، ومثل الآية الكريمة ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ويضع لهذه الاستعارة مصطلحها الذى شاع بعده، إذ سماها عنادية » [3].

وهذا الكلام ينبئ أن الإمام الرازى ذكر نوعى الاستعارة العنادية فى كتابه (نهاية الإيجاز) لأن الدكتور شوقى ضيف يتناول بلاغته فى هذا الكتاب، والصواب – فيما أرى – أنه لم يعرض للاستعارة التهكمية فيه، وإنما عرض لها فى التفسير [4].

والقول بأن الإمام الرازى صاحب مصطلح العنادية دعوى يعوزها الدليل؛ لأن كل ما ورد فى (نهاية الإيجاز) لا يعدو أن يكون ترادادا لكلمة (التعاند) عند حديثه عن استعارة الصفات المتضادة [5]، وهذا لا ينهض دليلا على أنه سماها (عنادية).

والذى يتراءى لى – فيما أظن – أن صاحب هذه التسمية هو الخطيب القزوينى حين قال: « وهى – الاستعارة – باعتبار الطرفين قسمان، لأن اجتماعهما

---

(١) أى الإمام الرازى.

(٢) البلاغة تطور وتاريخ / ٢٨٢.

(٣) مفهوم الاستعارة للدكتور أحمد عبد السيد الصاوى / ١٨٢.

(٤) ينظر الفخر الرازى والبلاغة العربية، للدكتور محمد جلال الذهبى / ٢١٨.

(٥) ينظر نهاية الإيجاز / ٩٧ – ٩٨.

فى شئ إما ممكن نحو (أحييناه) فى قوله تعالى : ﴿ **أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ** ﴾ [الأنعام: ١٢٢] أى ضالا فهديناه، ولتسم وفاقية، وإما ممتنع كاستعارة اسم المعدوم للموجود، لعدم غنائه، ولتسم عنادية، ومنها التهكمية، والتمليحية » (١).

فقد علق الدسوقى على قوله: (ولتسم وفاقية) بقوله: « ... لم يقل: وتسمى، إشعارا بأن هذه التسمية من جهة المصنف (٢) لا قديمة » (٣).

وهذا الذى قاله الدسوقى ينطبق على قول الخطيب: (ولتسم عنادية) أيضا، ولا يبعد أن تكون كلمة (التعاند) التى وردت فى كلام الإمام الرازى هى التى أوحت إلى صاحب التلخيص هذه التسمية.

التهكمية من العنادية:

لعل من المفيد أن أشير إلى أن الخطيب القزوينى عد الاستعارة التهكمية من الاستعارة العنادية، فبعد أن قسم الاستعارة باعتبار الجامع إلى وفاقية، وهى ما يمكن اجتماع طرفها فى شئ كقوله تعالى: ﴿ **فَأَحْيَيْنَاهُ** ﴾ من قوله تعالى: ﴿ **أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ** ﴾ [الأنعام: ١٢٢]

فإن المراد بـ (أحييناه) هديناه، والهداية، والحياة يجتمعان فى شئ واحد.

وإلى عنادية، وهى ما لا يمكن اجتماع طرفيها فى شئ، كاستعارة الميت للحى الجاهل (٤) – قال: « ... ومنها – أى العنادية – ما استعمل فى ضد معناه، أو نقيضه بتنزيل التضاد، أو التناقض منزلة التناسب بواسطة تهكم أو تمليح » (٥).

ولذلك فهم بعض كبار الباحثين من كلام الخطيب السابق أن العنادية نوعان:

---

(١) تلخيص المفتاح / ٨٢ – ٨٣.
(٢) أى الخطيب القزوينى.
(٣) حاشية الدسوقى على مختصر السعد ٤ / ٧٦ شروح التلخيص.
(٤) ينظر بغية الإيضاح ٣ / ١٢١ – ١٢٢.
(٥) المصدر نفسه / ١٢٢.

الأول: ما بنى التشبيه فيه على ترك الاعتداد بالصفة فى المشبه، لفقدان ثمرتها، ومن صور هذا النوع أن يستعار اسم الميت للحى الجاهل، لأن الجهل يفقد المرء ثمرة الحياة، وهى المعرفة كقول الله تعالى فى حق الكافرين المصرين على بقائهم على الجهل بحقائق الدين: ﴿**إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ**﴾ [النمل: ٨٠]

فقد استعير اسم الموتى للأحياء الكافرين، لعدم الاعتداد بصفة الحياة التى فيهم، لأنهم لم ينتفعوا بثمرتها.

الثانى: الاستعارة العنادية التهكمية، والتمليحية، ويبنى التشبيه فى هذا النوع على تنزيل التضاد الحاصل بين الطرفين منزلة التناسب، واعتبر النوع الأول عنادية عامة، والنوع الثانى عنادية تهكمية، أو تمليحية [١].

التبعية فى الأسماء المشتقة:

تطرق الإمام الرازى فى عدة مواضع إلى الاستعارة فى الأسماء المشتقة، وكان فى معظمها معتمدا على ما كتبه صاحب الكشاف، فقد قال فى قوله تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً**﴾ [فصلت: ٣٩]

«واعلم أنه تعالى لما ذكر الآيات الأربع الفلكية، وهى الليل، والنهار، والشمس، والقمر، أتبعها بذكر آية أرضية، فقال: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ...**﴾ والخشوع التذلل، والتصاغر، واستعير هذا اللفظ لحال الأرض حال خلوها عن المطر، والنبات ...» [٢].

وقال الزمخشرى فى هذه الآية: «الخشوع التذلل، والتقاصر، فاستعير لحال الأرض إذا كانت قحطة، لا نبات فيها، كما وصفها بالهمود فى قوله تعالى: ﴿**وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً**﴾ [الحج: ٥] وهو خلاف وصفها بالاهتزاز، والربو، وهو

---

(١) الإفصاح عما تضمنه الإيضاح من مباحث البيان، للدكتور/ أحمد محمد الحجار/ ١٦٣ - ١٦٦ (بتصرف).

(٢) التفسير الكبير ١٤ - ١/ ١٣١.

الانتفاخ إذا أخصبت، وتزخرفت بالنبات، كأنها بمنزلة المختال فى زيه، وهى قبل ذلك كالذليل الكاسف البال فى الأطمار الرثة ...» (١).

ويلاحظ أنه سوى بين وصف الأرض بالخشوع، ووصفها بالهمود، وهو فى هذا يتفق مع الشريف الرضى حين قال: «... واللفظان جميعا الخشوع والهمود - يرجعان إلى معنى واحد، وهو ما يظهر على الأرض من آثار الجدب، وأعلام المحل، فتكون كالإنسان الخاشع الذى سكنت أطرافه، وتطأطأ استشرافه» (٢).

وإذا كان اللفظان بمعنى واحد، فَلِمَ آثر الذكر الحكيم وضع كل منهما فى مكانه الذى جاء فيه؟

والإجابة الشافية التى أصابت المفصل، والمحز ما ألهمه العلامة سيد قطب - رحمه الله - حين بين أن جو السياق فى سورة الحج جو بعث، وإحياء، وإخراج، وهذا يتسق مع تصوير الأرض بأنها هامدة، وجو السياق فى سورة فصلت جو عبادة وخشوع، وسجود، وهذا يتسق معه تصوير الأرض بأنها خاشعة (٣).

ومن الاستعارة فى المشتقات أيضا ما ذكره فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١]

فقد قال: «... وقد استعير العرض لكثرة الدعاء، ودوامه، وهو من صفات الأجرام، ويستعار له الطول أيضا، كما استعير الغلظ لشدة العذاب» (٤).

وقال فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٧]

---

(١) الكشاف ٣/٣٩٢.
(٢) تلخيص البيان فى مجازات القرآن/٢٩٥.
(٣) ينظر التصوير الفنى فى القرآن/٩٩.
(٤) التفسير الكبير ١٤ - ١/١٣٩، وينظر الكشاف ٣/٣٩٥.

« ... ما السبب فى وصف يوم القيامة بأنه يوم ثقيل؟ الجواب: استعير الثقل لشدته، وهوله من الشئ الثقيل الذى يتعب حامله ... » [1].

وقال فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ﴾ [المزمل: ٢٠]

« والمراد من قوله: ﴿أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ﴾ أقل منهما، وإنما استعير الأدنى وهو الأقرب للأقل، لأن المسافة بين الشيئين إذا دنت، قل ما بينهما من الأحياز، وإذا بعدت، كثر ذلك » [2].

الاستعارة فى الحرف:

عرض الإمام الرازى للاستعارة فى الحرف أثناء تفسيره لكثير من الآيات، وإن كان لم يتطرق إليها فى كتابه (نهاية الإيجاز) [3].

وربما كان متأسيا فى ذلك بالشيخ عبد القاهر الجرجانى، فإنه لم يتكلم عنها [4] فى كتابيه: (دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة).

ومعلوم أنه – أعنى الإمام الرازى – كان معنيا فى المقام الأول بتلخيص ما فى كتابى الشيخ المذكورين من بلاغة.

ونتيجة لذلك قد يظن لأول وهلة أنه أول من طرق بابها، وارتاد ميدانها، والواقع خلاف ذلك، فقد أشاد فى بعض المواطن بما ذكره صاحب الكشاف فى لام العاقبة، واعتمد رأيه فيها، ولذلك فإننى أجد من المفيد أن ألم برأى صاحب الكشاف فى هذه الاستعارة أولا، لتكون رؤيتنا بعد ذلك لموقف الإمام الرازى منها واضحة جلية.

---

(١) التفسير الكبير ١٥ – ٢ / ٢٦٠، وينظر الكشاف ٤ / ١٧٢.

(٢) التفسير الكبير ١٥ – ٢ / ١٨٦، وينظر الكشاف ٤ / ١٥٥.

(٤) ينظر الفخر الرازى والبلاغة العربية / ١٩٥.

(٤) ينظر (آراء العصام فى شرحه للسمرقندية وقيمتها فى البلاغة والنقد)، للدكتور محمود توفيق / ١١٤ (رسالة ماجستير مخطوطة).

رأى الزمخشر ،:

من المواضع التى تكلم فيها الزمخشرى عن الاستعارة بالحرف ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]

فقد قال: «اللام فى ﴿لِيَكُونَ﴾ هى لام كى التى معناها التعليل، كقولك: جئتك لتكرمنى سواء بسواء، ولكن معنى التعليل فيها وارد على طريق المجاز، دون الحقيقة، لأنه لم يكن داعيهم إلى الالتقاط أن يكون لهم عدوا، وحزنا، ولكن المحبة، والتبنى، غير أن ذلك لما كان نتيجة التقاطهم له، وثمرته، شبه بالداعى الذى يفعل الفاعل الفعل لأجله، وهو الإكرام الذى هو نتيجة المجئ، والتأدب الذى هو ثمرة الضرب فى قولك: ضربته ليتأدب، وتحريره أن هذه اللام حكمها حكم الأسد حيث استعيرت لما يشبه التعليل، كما يستعار الأسد لمن يشبه الأسد»(١).

وقد استدل الدكتور محمد أبو موسى بإجراء الزمخشرى التشبيه فى العداوة، وقوله: إن هذه اللام حكمها حكم الأسد ... على أن الاستعارة تكون إما فى مدخول الحرف، وإما فى الحرف نفسه، ولم يجد ما يرجح أحدهما على الآخر، فقد علق على هاتين الوجهتين بقوله: «وقد فكرت كثيرا فى كلام الزمخشرى فى هذا الموضوع؛ لأقف على مراده، وأتبين فى أيهما يكون التشبيه، والاستعارة فى الحرف أم فى مدخوله، وكلما قوى فى نظرى وجه، نظرت، فوجدت الآخر لا يقل عنه قوة، فكلامه صريح فى أن التشبيه، والاستعارة يجريان فى مدخول الحرف، وكلامه صريح أيضا فى أن اللام مستعارة كاستعارة الأسد للرجل الشجاع، وقد بان لى أن كلام الزمخشرى يصح أن يستدل به على الوجهتين، ومن الخطأ أن يحمل على

(١) الكشاف ٣/١٥٧ - ١٥٨.

وجهة دون أخرى، وليس فى هذا قدح، لأن هذه المسألة لم تكن محددة فى زمانه »[1].

رأى الإمام الرازى:

والآن نريد أن نتعرف إلى رأى الإمام الرازى، وهل له رأى خاص يعتد به، أو أنه اكتفى بترديد ما قاله الزمخشرى من قبل؟

وقد وجدت أن كلامه فى هذه الاستعارة يتمثل فى ثلاث صور:

أولاها: أنه تكلم عنها كلاما عاما، فقد قال عند تفسير قوله تعالى:

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ...** ﴾ [آل عمران: ١٥٦]

« ... ﴿ **لِيَجْعَلَ اللَّهُ** ﴾ التقدير: أنهم قالوا ذلك الكلام، ليجعل الله ذلك الكلام حسرة فى قلوبهم، مثل ما يقال: ربيته ليؤذينى، ونصرته ليقهرنى، ومثل قوله تعالى: ﴿ **فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا** ﴾ [القصص: ٨][2].

---

(١) البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى / ٤٢٠، ونحن بصدد حديث الدكتور محمد أبو موسى عن رأى الزمخشرى فى الاستعارة فى الحرف، أود أن أشير إلى أننى وجدت الدكتور أحمد عبد السيد الصاوى ذكر مرتين فى صفحتى / ٣٦، ١٧٠ من كتابه (مفهوم الاستعارة) أن الدكتور أبو موسى قال فى كتابه (البلاغة القرآنية ...): إن الزمخشرى أول من أدرك الاستعارة فى الحرف أو أول من أشار إليها، والصحيح - كما يقول - : أن المبرد أول من أدرك هذا النوع من الاستعارة.

وقد أغرمت بمراجعة ما جاء فى هذا الكتاب، لأتبين حقيقة الأمر، فوجدت أنه قال فى الصفحات / ٤١٩ - ٤٢١ - ٦٤٥.

إن الزمخشرى من أوائل من تكلموا عنها، وليس بأول من تكلم عنها، وفرق كبير بين التعبيرين، وبذلك يكون ما ذكره الدكتور الصاوى غير دقيق.

(٢) التفسير الكبير ٥ - ١ / ٥٧.

وقال فى قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ ... ﴾ [الأنعام: ١٣٧]

« ... ثم قال تعالى: ﴿ لِيُرْدُوهُمْ ﴾ والإرداء فى اللغة الإهلاك ... واللام ههنا محمولة على لام العاقبة، كما فى قوله: ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ (١).

وقال فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [النحل: ٢٤، ٢٥]

« اللام فى ﴿ لِيَحْمِلُوا ﴾ لام العاقبة: وذلك لأنهم لم يصفوا القرآن بكونه أساطير الأولين، لأجل أن يحملوا الأوزار، ولكن لما كانت عاقبتهم ذلك حسن ذكر هذه اللام كقوله: ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ (٢).

وقال فى كثير من الآيات الأخرى مثل ذلك.

فقوله: إن اللام هى لام العاقبة، وتنظيره لها باللام فى قوله: ﴿ ... لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ يشعر أنها مستعملة فى غير معناها الحقيقى، وإن كان لم يصرح بذلك.

ثانيتها: أنه ارتضى رأى الزمخشرى، واختاره صراحة فى بعض المواضع، ونقله دون أن يشير إليه فى موضع آخر، فقد قال عند قوله تعالى: ﴿ ... لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ [القصص: ٨]

« ... أما قوله: ﴿ لِيَكُونَ ... ﴾ فالمشهور أن هذه اللام يراد بها العاقبة، قالوا وإلا نقض قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ... ﴾ [القصص: ٩] ونقض قوله: ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ... ﴾

---

(١) المصدر نفسه ٧ - ١/٢١٧.

(٢) المصدر نفسه / ١٠، ٢/١٨.

[طه: ٣٩] ونظير هذه اللام قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّم ...** ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وقول الشاعر:

..... لدوا للموت وابنوا للخراب [١].

واعلم أن التحقيق ما ذكره صاحب الكشاف، وهو أن هذه اللام هى لام التعليل على سبيل المجاز، وذلك لأن مقصود الشئ، وغرضه يئول إليه أمره، فاستعملوا هذه اللام فيما يئول إليه الشئ على سبيل التشبيه، كإطلاق لفظ الأسد على الشجاع، والبليد على الحمار» [٢].

ويلاحظ أنه اقتصر على شطر من كلام صاحب الكشاف، فجعل اللام نفسها مستعارة، كاستعارة الأسد للشجاع، ولم يعرض لتشبيه العداوة، والحزن بالعلة الحقيقية، وهى المحبة، والتبنى حتى يمكننا أن نستدل بذلك على أن الاستعارة يمكن أن تكون فى مدخول الحرف أيضا، ولكنه ذكر فى موضع آخر ما يغنينا عن ذلك، حين بين أن ما تدخل عليه لام العاقبة مشبه، وما كان حقه أن تدخل عليه، وهو العلة الحقيقية مشبها به، يقول فى قوله تعالى: ﴿ **وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ** ﴾ [إبراهيم: ٣٠]

«اللام فى قوله: ﴿ **لِّيُضِلُّوا ...** ﴾ لام العاقبة، لأن عبادة الأوثان سبب يؤدى إلى الضلال، ويحتمل أن تكون لام كى أى الذين اتخذوا الوثن كى يضلوا غيرهم، هذا إذا قرئ بالضم - يقصد ضم الياء - فإنه يحتمل الوجهين، وإذا قرئ بالنصب - بفتح الياء - فلا يحتمل إلا لام العاقبة، لأنهم لم يريدوا ضلال أنفسهم، وتحقيق القول فى لام العاقبة، أن المقصود من الشئ لا يحصل إلا فى آخر المراتب، كما قيل: أول الفكر آخر العمل، وكل ما حصل فى العاقبة كان

---

(١) هذا عجز بيت، وصدره: (له ملك ينادى كل يوم)، وسيأتى هذا البيت فى حديثه كاملا بعد قليل.

(٢) لعل صحة العبارة: والحمار على البليد، التفسير الكبير ١٢ - ٢ / ٢٢٨.

شبيها بالأمر المقصود فى هذا المعنى، والمشابهة أحد الأمور المصححة لحسن المجاز، فلهذا السبب حسن ذكر اللام فى العاقبة» (١).

وبما ذكره فى الآية الأخيرة يكون قد اكتمل عنده رأى الزمخشرى بشطريه وهما إجراء الاستعارة فى الحرف ذاته، أو إجراؤها فى مدخوله.

وقد نقل كلام الزمخشرى من غير أن يصرح بذلك عند قوله تعالى:

﴿ ... وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]

فقال: « ... ثم قال: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ فشبه تمكن المصلوب فى الجذع بتمكن الشئ الموعى فى وعائه، فلذلك قال: ﴿فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ (٢)»

ويلاحظ أن مدخول الحرف بعد لام العاقبة فى شتى مواقعها، والمجرور بـ ﴿فِي﴾ الجارة – هو المشبه، أما المشبه به بعدهما، فهو مختلف، لأنه بعد اللام – العلة الحقيقة للمعنى الموجود قبلها، أو بعبارة أخرى ما كان حقه أن تدخل عليه اللام، وبعد ﴿فِي﴾ المعنى الكلى للحرف، وأن المشبه مذكور بعدهما، والمشبه به محذوف. وقد أجرى الخطيب القزوينى هذه الاستعارة فى مدخول الحرف (٣).

ويقال فى إجرائها فى آية القصص – مثلا – شبهت العداوة، والحزن المترتبان على الالتقاط بالعلة الحقيقية، وهى المحبة، والتبنى بجامع ترتب كل منهما على الالتقاط، وتبعا لذلك استعيرت اللام من معناها الحقيقى، وهو ترتب العلة الحقيقية على الالتقاط، لترتب غير العلة الحقيقية عليه على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، والقرينة هى دخول اللام على العداوة، والحزن.

وأجراها السكاكى فى متعلق معنى الحرف (٤).

وهذان الوجهان فى إجرائها يمكن أن نرجع بهما إلى كلام الزمخشرى (٥) الذى وافقه عليه الإمام الرازى.

---

(١) المصدر نفسه ١٠ – ١/١٢٦.

(٢) المصدر نفسه ١١ – ٢/٨٧، وينظر الكشاف ٢/٤٤١.

(٣) ينظر بغية الإيضاح ٣/١٣٥ وما بعدها. (٤) ينظر المفتاح/١٨٠.

(٥) التصوير البيانى للدكتور محمد أبو موسى/ ٢٢٥ (بتصرف).

ثالثتها: أنه ذكر ما يمكن أن يعتبر رأيا جديدا – فيما أحسب – وهو أن الاستعارة ليست فى الحرف وحده، بل فى التركيب الذى جاء فيه، فتكون من قبيل الاستعارة التمثيلية.

وقد فهمت ذلك من كلامه فى قوله تعالى: ﴿ **وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ...** ﴾ [آل عمران: ١٧٨]

فقد ذكر فى الآية عدة أوجه منها أن تحمل اللام على العاقبة، ومنها «أنه تعالى لما أمهلهم مع علمه بأنهم لا يزدادون عند هذا الإمهال إلا تماديا فى الغى، والطغيان، أشبه هذا حال من فعل الإملاء لهذا الغرض، والمشابهة أحد أسباب حسن المجاز» (١).

فكونه قابل بين الوجه الأخير، والوجه الذى عد فيه اللام للعاقبة، وجعله قسيما له، يشعر بأنهما مختلفان، وأيضا فإن شرحه للوجه الأخير يوحى بأن المجاز فيه مركب شبهت فيه صورة إملاء الله لهم حتى يزدادوا إثما بصورة من أرخى العنان لعدوه حتى يتمادى فى ظلمه، فيتضاعف جرمه، وإثمه.

فإن صح ما فهمته يكون قد أتى فى هذه الاستعارة برؤية جديدة تجعلها بعيدة عن الاختلاف فى إجرائها.

وقد ظهر هذا الاتجاه بعد الإمام الرازى عند البلاغيين، فأجرى العلامة سعد الدين التفتازانى فى قوله تعالى: ﴿ **أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ...** ﴾ [البقرة: ٥] – استعاره تمثيلية، فشبه حال المهتدى فى ثباته على الحق بهيئة الكائن على جواد متمكن منه، ومستعل عليه، واستعيرت الهيئة الأولى للثانية (٢).

هل تأثر الإمام الرازى فى هذه الاستعارة بغير الزمخشرى؟

علمنا – فيما سبق – مدى تأثر الإمام الرازى بصاحب الكشاف فى الاستعارة بالحرف، ولكن ألا يوجد من يكون قد تأثر بهم غيره؟

---

(١) التفسير الكبير ٥ – ١/١١١.

(٢) التصوير البيانى / ٢٣٦.

وللإجابة عن ذلك أقول: لا يمكن معرفة ذلك إلا بأحدى طريقتين:

تصريح منه، أو نقل عن غيره يعلم مصدره.

وقد ظفرت بتصريح له عند قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ...** ﴾ [الأعراف: ١٧٩]

ينبئ بأنه متأثر فيها بمن سبقوه، فقد ذكر فى الآية عدة وجوه، ثم أتبعها بقوله: « ... فثبت بهذه الوجوه أنه لا يمكن حمل هذه الآية على ظاهرها فوجب المصير فيه إلى التأويل، وتقريره: أنه لما كانت عاقبة كثير من الجن والإنس، هى الدخول فى نار جهنم، جاز [١] ذكر هذه اللام بمعنى العاقبة، ولهذا نظائر كثيرة فى القرآن والشعر. أما القرآن، فقوله تعالى: ﴿ **وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ** ﴾ [الأنعام: ١٠٥] حسن ورود هذا اللفظ، وأيضا قال تعالى: ﴿ **رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ** ﴾ [يونس: ٨٨]

وأيضا قال تعالى: ﴿ ﴿ **فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً** ﴾ ﴾ [القصص: ٨]

وهم ما التقطوه لهذا الغرض، إلا أنه لما كانت عاقبة أمرهم ذلك، حسن هذا اللفظ، وأما الشعر فأبيات:

قال: وللموت تغذو الوالدات سخالها ... كما لخراب الدهر تبنى المساكن

وقال: أموالنا لذوى الميراث نجمعها ... ودورنا لخراب الدهر نبنيها

وقال: له ملك ينادى كل يوم ... لدوا للموت وابنوا للخراب

وقال: وأم سماك فلا تجزعى ... للموت ما تلد الوالدة

هذا منتهى كلام القوم فى الجواب ... [٢].

---

(١) فى التفسير (جائز) والصواب ما أثبته. (٢) التفسير الكبير ٨ - ١ / ٦٦.

فقوله: هذا منتهى ... صريح فيِ أن هذه الاستعارة كانت معلومة مشتهرة عند كثير من العلماء قبله.

وقد تأثر بهم، ونهل من علمهم، وهذا يعطينا دليلا قويا على أن الزمخشرى ليس أبا عذرتها، بل هو مسبوق إليها، لكن من هؤلاء القوم الذين اطلع الإمام الرازى على حديثهم عنها؟ لا يستطيع أحد أن يهتدى إلى معرفتهم إلا إذا طابق بين كلامه وكلامهم، وتأكدت الصلة بينهما، وهذا دونه خرط القتاد، وقد لمحت وصلة وإن كانت غير وطيدة بين كلامه فى الآية السابقة، وكلام القاضى عبد الجبار، وهى الآبيات الشعرية التى ساقها شواهدا على أن اللام للعاقبة، فهى موجودة بتمامها عند القاضى (١).

ولعل فى هذا دليلا على أنه أحد الأعلام الذين أشار إليهم خصوصا أن له فى تفسيره ذكرا وفكرا.

الاستعارة التمثيلية:

من المعلوم أن الاستعارة التمثيلية مجاز مركب (٢) ولم يذكرها الإمام الرازى باسمها فى تفسيره - جريا على عادته - وإن كان قد ذكرها فى كتابه (نهاية الإيجاز) على أنها ضرب من التمثيل حين قال: « وقد خصوا التمثيل المنتزع من اجتماع أمور يتقيد البعض بالبعض باسم التمثيل، فقد يكون ذلك على حد الاستعارة كقولهم لمن يتردد فى الأمر: أراك تقدم رجلا، وتؤخر أخرى، والأصل: أراك فى ترددك كمن يقدم رجلا، ويؤخر أخرى ...» (٣).

وقد حاولت جاهدا أن أجد فى كلامه صورا من هذه الاستعارة، فأمعنت النظر، وأطلت الوقوف أمام كثير مّن تحليلاته، وتدقيقاته البيانية، حتى أدركت

---

(١) ينظر بلاغة القرآن فى آثار القاضى عبد الجبار / ٢٩٢ - ٢٩٣.

(٢) ينظر بغية الإيضاح / ١٤٦ وما بعدها. (٣) نهاية الإيجاز / ٨١.

بغيتى، وعثرت على ما يعتبر استعارة تمثيلية من وجهة نظره، لأنه لمحها فى التركيبات، لا فى المفردات.

وقد وجدتها فى حديثه على عدة وجوه:

أحدها: أن يصرح بأنها استعارة – دون تحديد نوعها كما ذكرت – فقد قال فى قوله تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ...**﴾ [البقرة: ١٤٣]

«قوله: ﴿**مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ**﴾ استعارة؛ ومعناه: من يكفر بالله، ورسوله، ووجه الاستعارة أن المنقلب على عقبيه قد ترك ما بين يديه، وأدبر عنه، فلما تركوا الإيمان، والدلائل صاروا بمنزلة المدبر عما بين يديه، فوصفوا بذلك، كما قال تعالى: ﴿**ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ**﴾ [المدثر: ٢٣] وكما قال: ﴿**كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ**﴾ [القيامة: ٣٢] وكل ذلك تشبيه»[(١)].

وقد عدها الألوسى استعارة تمثيلية، فبين أن الانقلاب على العقبين فى الآية يراد به الارتداد عن الإسلام، يقول فى ذلك: «.. والكلام من باب الاستعارة التمثيلية بجامع أن المنقلب يترك ما فى يديه، ويدبر عنه على أسوأ أحوال الرجوع، وكذلك المرتد يرجع عن الإسلام، ويترك ما فى يديه من الدلائل على أسوأ حال ...»[(٢)].

وسار على نهجه فى اعتبارها استعارة تمثيلية الشيخ محمد الطاهر بن عاشور فقال: «.. والانقلاب الرجوع إلى المكان الذى جاء منه، يقال: انقلب إلى الدار، وقوله: ﴿**عَلَىٰ عَقِبَيْهِ**﴾ زيادة تأكيد فى الرجوع إلى ما كان وراءه، لأن العقبين هما خلف الساقين أى انقلب على طريق عقبيه، وهو هنا استعارة تمثيلية، للارتداد عن الإسلام رجوعا إلى الكفر السابق»[(٣)].

---

(١) التفسير الكبير ٢ – ٢/١١٥ – ١١٦.
(٢) روح المعانى ١ – ٢/٥.
(٣) تفسير التحرير والتنوير ٢/١٩ – ٢٠.

وقد جاء فى كلام الشريف الرضى فى مثل هذه الاستعارة ما يفهم منه أنها من قبيل الاستعارة المفردة، فقد قال فى قوله تعالى: ﴿ ... **أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ** ﴾ [آل عمران: ١٤٤]

« ... وهذه استعارة، والمراد بها الرجوع عن دينه، والتقاعس عن اتباع طريقه، فشبه سبحانه الرجوع فى الارتياب بالرجوع على الأعقاب » (١) وقال الشريف فى قوله تعالى: ﴿ **ولا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ** ﴾ [المائدة: ٢١]

« وهذه استعارة، ونظيرها قوله تعالى: ﴿ **انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ** ﴾ أى لا تولوا عن دينكم، وتشكوا بعد يقينكم، فتكونوا كالمتقهقر الراجع، والمتقاعس الناكص » (٢).

وقد عقب على كلامه فى آية آل عمران الدكتور عبد العظيم المطعنى بأن الأصح فى هذه الاستعارة أن تكون تمثيلية، فقال:

« جزم الشريف – رحمه الله – بأن فى الآية استعارة مفردة، تشبيه رجوع برجوع، وهذا جائز، ولكن الأصح منه اعتبارها استعارة تمثيلية بتشبيه هيئة المرتد عن الدين بعد الدخول فيه بهيئة المنقلب على عقبه، وهو يسير فى الطريق بجامع الهلاك، والخسارة فى كل ... » (٣).

ثانيها: أن يذكر أنها مجاز، ثم يبينه بأنه مجاز المشابهة – يعنى الاستعارة – فقد قال فى قوله تعالى: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ** ﴾ [الأعراف: ٥٧]

« قوله: ﴿ **بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ** ﴾ أى بين يدى المطر الذى هو رحمته، والسبب فى حسن هذا المجاز أن اليدين يستعملهما العرب فى معنى التقدمة على سبيل

---

(١) تلخيص البيان فى مجازات القرآن / ١٢٥.
(٢) المرجع نفسه / ١٣١ – ١٣٢.
(٣) المجاز فى اللغة والقرآن الكريم ١ / ٢٠٤.

المجاز، يقال: إن الفتن تحدث بين يدى الساعة يريدون قبيلها، والسبب فى حسن هذا المجاز أن يدى الانسان متقدماته، فكل ما كان يتقدم شيئا يطلق عليه لفظ اليدين على سبيل المجاز، لأجل هذه المشابهة، فلما كانت الرياح تتقدم المطر، لا جرم عبر عنه بهذا اللفظ» (١).

وواضح أنه يقصد أن الرياح تتقدم المطر، كما يتقدم الإنسان يداه، وإن كانت بعض العبارات لا تسعف هذا المعنى، كقوله: فكل ما كان يتقدم شيئا يطلق عليه لفظ اليدين، ولعله يريد: يطلق عليه (بين يديه) حتى يكون كلامه متلائما.

وقد عد الشيخ عبد القاهر، والخطيب مثل هذه الآية من الاستعارة التمثيلية (٢).

ثالثها: أن يذكر أن فى الكلام تشبيها، ويدل حديثه على إرادة التشبيه الذى تبنى عليه الاستعارة، فقد قال فى قوله تعالى: ﴿**وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ**﴾ [البقرة: ١٠٨]

«﴿**سَوَاءَ السَّبِيلِ**﴾ وسطه، قال تعالى: ﴿**فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ**﴾ [الصافات: ٥٥] أى وسط الجحيم، والغرض التشبيه دون نفس الحقيقة، ووجه التشبيه فى ذلك أن من سلك طريقة الإيمان، فهو جار على الاستقامة المؤدية إلى الفوز، والظفر بالطلبة من الثواب، والنعيم، فالمبدل لذلك بالكفر عادل عن الاستقامة، فقيل فيه: إنه ضل سواء السبيل» (٣).

وغنى عن البيان أن الآية ليس فيها تشبيه اصطلاحى، وهذا يدل على أنه يعنى التشبيه الذى هو أساس الاستعارة، وهى هنا تمثيلية كما ينبئ كلامه، لأنها ليست فى مفرد من المفردات، بل فى العبارة بأسرها.

---

(١) التفسير الكبير ٧ - ٢ / ١٤٧.

(٢) ينظر أسرار البلاغة / ٢٨٥ - ٢٨٦، وبغية الإيضاح ٣ / ١٤٨.

(٣) التفسير الكبير ٢ - ١ / ٢٥٥.

ومثلها ما ذكره فى قوله تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ...** ﴾ [الشورى: ٥١]

فقد قال: «القائلون بأن الله فى مكان احتجوا بقوله: ﴿ **أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ** ﴾ وذلك لأن التقدير: وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا على ثلاثة أوجه: أحدها: أن يكون الله من وراء حجاب، وإنما يصح ذلك لو كان مختصا بمكان معين، وجهة معينة والجواب: أن ظاهر اللفظ وإن أوهم ما ذكرتم إلا أنه دلت الدلائل العقلية، والنقلية على أنه تعالى يمتنع حصوله فى المكان، والجهة، فوجب حمل هذا اللفظ على التأويل، والمعنى أن الرجل إذا سمع كلاما مع أنه لا يرى ذلك المتكلم، كان ذلك شبيها بما إذا تكلم من وراء حجاب، والمشابهة سبب لجواز المجاز» (١).

التمثيل والمثل:

أوضحت فى مبحث التشبيه أن الإمام الرازى ممن لا يفرقون بين التشبيه، والتمثيل، سواء كان التشبيه مفردا، أو مركبا، حسيا أو عقليا.

من أجل ذلك سمى التشبيه المفرد، والمركب مثلا، فقد قال عند تفسير قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ** ﴾ [الصف: ٤]

بعد أن حكى بعض الآراء فى التشبيه الموجود فى الآية: « ... وقيل ضرب هذا المثل للثبات يعنى إذا اصطفوا، ثبتوا كالبنيان المرصوص الثابت المستقر» (٢).

وقال وهو يقدم للتشبيه فى قوله تعالى: ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ...** ﴾ [الجمعة: ٥]

---

(١) المصدر نفسه ١٤ – ١/١٨٨.

(٢) المصدر نفسه ١٥ – ١/٣١٣.

« ثم إنه ضرب ؛ ليهود الذين أعرضوا عن العمل بالتوراة والإيمان بالنبى – ﷺ – مثلا فقال : ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ** ﴾ (١) .

وحتى عندما أشار إلى الاستعارة التمثيلية فى كتابه (نهايج الإيجاز) عدها نوعا من التمثيل فقال : « ... فقد يكون ذلك – التمثيل – على حد الاستعارة، كقولهم لمن يتردد فى الأمر : أراك تقدم رجلا، وتؤخر أخرى، والأصل أراك فى ترددك كمن يقدم رجلا ويؤخر أخرى » (٢) .

مع أنها عند المتأخرين هى الجديرة باسم التمثيل مطلقا، أو التمثيل على سبيل الاستعارة (٣) .

وعندما حدد معالم المثل قال : « إنه تشبيه سائر ... » (٤) .

وهذا يدل على تداخل التشبيه، والتمثيل، والمثل عنده، فقد فسر الأمثال بالتشبيهات عند قوله تعالى : ﴿ **انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ** ... ﴾ [الإسراء : ٤٨]

فقال : « أى كل أحد شبهك بشئ آخر فقالوا : إنه كاهن، وساحر، وشاعر، ومعلم، ومجنون، فضلوا عن الحق، والطريق المستقيم، فلا يستطيعون سبيلا إلى الهدى، والحق » (٥) .

وفسر المثل بالتشبيه عند قوله تعالى : ﴿ **وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ** ﴾ [العنكبوت : ٤٣]

فقال : « قال الكافرون كيف يضرب خالق الأرض والسموات الأمثال بالهوام، والحشرات كالبعوض ، والذباب ، والعنكبوت ؟ فيقال : الأمثال تضرب للناس ، إن لم تكونوا كالأنعام ، يحصل لكم منه إدراك ما يوجب نفرتكم مما أنتم فيه ، وذلك لأن التشبيه يؤثر فى النفس تأثيرا مثل تأثير الدليل ، فإذا قال

---

(١) المصدر نفسه ١٥ – ٢ / ٤ – ٥ .
(٢) نهاية الإيجاز / ٨١ .
(٣) تلخيص المفتاح / ٨٦ .
(٤) نهاية الإيجاز / ٨١ .
(٥) التفسير الكبير ١٠ – ٢ / ٢٢٥ .

الحكيم لمن يغتاب : إنك بالغيبة كأنك تأكل لحم ميت ؛ لأنك وقعت فى هذا الرجل وهو غائب ، لا يفهم ما تقول ، ولا يسمع حتى يجيب ، كمن يقع في ميت يأكل منه ، وهو لا يعلم ما يفعله ، ولا يقدر على دفعه إن كان يعلمه ، فينفر طبعه منه ، كما ينفر إذا قال له : إنه يوجب العذاب ، ويورث العقاب [١] .

ومع ذلك فإنه أطلق التمثيل ، أو المثل على أشياء ليست من وادى التشبيه، وهو فى أغلبها متبع سنن الزمخشرى ، وسائر على نهجه [٢] .

أولها : الاستعارة فى المفرد ، فقد قال فى قوله تعالى : ﴿ **فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ** ﴾ [هود : ١١٦] .

وقوله : « (أو لو بقية) فالمعنى : أو لو فضل ، وخير ، وسمى الفضل ، والجود بقية ؛ لأن الرجل يستبقى مما يخرجه أجوده ، وأفضله ، فصار هذا اللفظ مثلا فى الجودة ، يقال : فلان من بقية القوم أي خيارهم ، ومنه قوله : فى الزوايا خبايا ، وفي الرجال يقايا [٣] » .

وقال فى قوله تعالى : ﴿ **وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ...** ﴾ [فاطر : ١٩] .

لما بين الهدى ، والضلالة ، ولم يهتد الكافر ، وهدى الله المؤمن ، ضرب لهم مثلا بالبصير ، والأعمى ... [٤] .

وإطلاق المثل ، أو التمثيل على الاستعارة المفردة جوزه الشيخ عبد القاهر الجرجانى ، إذا كان الشبه فيها عقليا ، فيقال : ضرب النور مثلا للقرآن ، والحياة مثلا للعلم [٥] .

ثانيها : الكناية ، فقد أطلق عليها التمثيل عند قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ...** ﴾ [المائدة : ٣٦] .

---

(١) المصدر نفسه ١٣ ، ١ / ٧٠ .

(٢) ينظر البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى / ٤٢٩ وما بعدها .

(٣) التفسير الكبير ٩ ، ٢ / ٧٧ . وينظر الكشاف ٢ / ٢٣٨ .

(٤) التفسير الكبير ١٣ ، ٢ / ١٦ .

(٥) ينظر أسرار البلاغة / ١٩٤ .

فقال : «المقصود من هذا الكلام التمثيل للزوم العذاب لهم ، فإنه لا سبيل لهم إلى الخلاص منه ، وعن النبى ﷺ : « يقال للكافر يوم القيامة : أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهبا ، أكنت تفتدى به ، فيقول : نعم ، فيقال له : قد سئلت أيسر من ذلك فأبيت » [١] .

ومما يؤكد هذا الاتجاه عنده أننى وجدته يطلق اسم الكناية والمثل على الشئ الواحد ، فقد ذكر عند قوله تعالى : ﴿ **فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا** ﴾ [المزمل : ١٧] .

وجهين فى معنى جعله الولدان شيبا، أحدهما : أنه مثل فى الشدة يقال فى اليوم الشديد : يوم يشيب نواصى الأطفال ، والأصل فيه أن الهموم ، والأحزان إذا تفاقمت على الإنسان أسرع فيه الشيب ؛ لأن كثرة الهموم توجب انقصار الروح إلي داخل القلب ، وذلك الانقصار يوجب انطفاء الحرارة الغريزية ، وانطفاء الحرارة الغريزية ، وضعفها يوجب بقاء الأجزاء الغذائية غير تامة النضج ... وذلك يوجب ابيضاض الشعر ، فلما رأوا أن حصول الشيب من لوازم كثرة الهموم ، جعلوا الشيب كناية عن الشدة ، والمحنة ، وليس المراد أن هول ذلك اليوم (يجعل الولدان شيبا) حقيقة ؛ لأن إيصال الألم ، والخوف إلى الصبيان غير جائز يوم القيامة [٢] .

ثالثها : الأشياء التى لا يراد ظاهرها ، وإنما ضربت مثلا للمبالغة في نفي الفعل ، أو إيجابه ، فقد قال فى قوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا** ﴾ [النساء : ٤٩] .

قوله : ﴿ **وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا** ﴾ هو كقوله : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ** ﴾ [النساء : ٤٠] . والمعنى : أن الذين يزكون أنفسهم يعاقبون على تلك التزكية حق جزائهم من غير ظلم ، أو يكون المعنى : إن الذين زكاهم الله فإنه يثيبهم على

---

(١) التفسير الكبير ٦ ، ١ / ٢٢٧ . وينظر الكشاف ١ / ٣٣٦ .

(٢) التفسير الكبير ١٥ ، ٢ / ١٨٤ .

طاعاتهم ، ولا ينقص من ثوابهم شيئا ، والفتيل ما فتلت بين أصبعيك من الوسخ، فعيل بمعنى مفعول ، وعن ابن السكيت : الفتيل ما كان فى شق النواة ، والنقير النقطة التى فى ظهر النواة ، والقطمير القشرة الرقيقة على النواة ، وهذه الأشياء كلها تضرب أمثالا للشئ التافه الحقير ، أي لا يظلمون لا قليلا ، ولا كثيرا [1] .

وقد كرر هذا المعنى عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً** ﴾ [الإسراء : ٧١] .

فقال : ... والفتيل القشرة التى فى شق النواة ، وسمى بهذا الاسم ؛ لأنه إذا أراد الإنسان استخراجه انفتل ، وهذا يضرب مثلا للشئ الحقير التافه ، ومثله النقير ، والقطمير فى ضرب المثل به ، والمعنى : لا ينقصون من الثواب بمقدار فتيل ، ونظيره قوله : ﴿ **وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا** ﴾ [مريم :٦٠] ، ﴿ **فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا** ﴾ [طه : ١١٢] . وروى مجاهد عن ابن عباس – رضى الله عنهما – أنه قال : الفتيل هو الوسخ الذى يظهر بفتل الإنسان إبهامه بسبابته ، وهو فعيل من الفتل بمعنى مفتول [2] .

وما سماه فى الموضعين السالفين مثلا ، أو أمثالا سماه فى موضع مناظر لهما تمثيلا ، وهذا يعنى أن المثل ، والتمثيل عنده يتعاقبان على معنى واحد ، فقد قال عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً** ﴾ [النساء : ٥٣]

واعلم أن ذكر النقير ههنا تمثيل ، والغرض أنهم يبخلون بأقل القليل [3] ، وقد ذكر في موضع مماثل فائدة هذا الأسلوب ، وأنه لا يقصد منه ظاهره فلا يقصد – مثلا – أن الله لا يظلم الناس مقدار نقير ، أو قطمير ، وإنما يقصد نفى الظلم من أساسه ، وقد جاء هذا الأسلوب على ما تعارفه العرب من نفى أصغر

---

(١) المصدر نفسه ٥ ، ٢/ ١٣١ .

(٢) المصدر نفسه ١١ ، ١/ ١٩ .

(٣) المصدر نفسه ٥ ، ٢/ ١٣٦ .

الأشياء التى لا يحفلو : بها ، ولا يقيمون لها وزنا ، وغرضهم نفى الشئ برمته فقال فى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ** ﴾ [النساء : ٤٠] .

« الذرة النملة الحمراء الصغيرة فى قول أهل اللغة ، وروى عن ابن عباس – رضى الله عنهما – أنه أدخل يده فى التراب ، ثم رفعها ، ثم نفخ فيها ، ثم قال : كل واحد من هذه الأشياء ذرة ، ومثقال : مفعال من الثقل يقال : هذا على مثقال هذا ، أى وزن هذا ، ومعنى مثقال ذرة : أي ما يكون وزنه وزن الذرة ، واعلم أن المراد من الآية أنه تعالى لا يظلم قليلا ، ولا كثيرا ، ولكن الكلام خرج على أصغر ما يتعارفه الناس يدل عليه قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا** ﴾ [يونس : ٤٤] (١) .

رابعها : ما يمكن أن نطلق عليه حكما عاما ، أو قضية شاملة ، أو حكمة بالغة ، كقولهم : من جَدَّ وَجَدَ ، ومن طلب العلا سهر الليالى ، وهذا وإن كان من قبيل الحقيقة إلا أنه قد اعتبره مثلا ، ويظهر أنه لاحظ ما فيه من إيجاز فى اللفظ ، وإصابة فى المعنى ، ودقة فى التعبير ، وهى أمور متحققة فى المثل ؛ فأطلق عليه لفظ المثل .

فقد قال فى قوله تعالى : ﴿ **قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ** ﴾ [الجاثية : ١٤ ، ١٥] .

« . . . ثم ذكر – أى الله جل جلاله – الحكم العام فقال : ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ** ﴾ وهو مثل ضربه الله للذين يغفرون (ومن أساء فعليها) مثل ضربه للكفار الذين كانوا يقدمون على إيذاء الرسول – ﷺ – والمؤمنين ، وعلى ما لا يحل ، فبين تعالي أن العمل الصالح يعود بالنفع العظيم على فاعله ، والعمل الردئ يعود بالضرر على فاعله ، وأنه تعالى أمر بهذا ، ونهى عن ذلك لحظ العبد ،

---

(١) المصدر نفسه ٥ ، ٢/ ١٠٥ .

لا لنفع يرجع إليه ، وهذا ترغيب منه فى العمل الصالح ، وزجر عن العمل الباطل[1] .

وهذا النوع من الأمثال في القرآن الكريم سماه بعض الباحثين بالأمثلة المرسلة[2] كقوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر : ٣٨] . وقوله : ﴿ قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ ﴾ [المائدة : ١٠٠] .

وهنا أود أن أقول : إن كان الإمام الرازى قد أطلق على هذه الأشياء تمثيلا ، فإن له عذره ؛ لأن زمنه لم يشهد تحديد مدلوله تحديدا دقيقا .

ويظهر أن الكلمة الأخيرة فى تبيان معالمه ، ورسم حدوده لم تقل بعد ، وخير شاهد على ذلك أن صاحب روح المعانى ، وهو متأخر عنه بأكثر من سبعة قرون[3] تكلم عن الأمثال بما يوافق كلام الإمام الرازى موافقة تامة فقد قال : والأمثال تضرب للكشف ، والبيان ، والمثل (بفتحتين) كالمثل (بكسر فسكون) والمثيل فى الأصل النظير ، والشبيه ، والتفرقة لا أرتضيها ، وكأنه مأخوذ من المثول ، وهو الانتصاب ، ومنه الحديث (من أحب أن يتمثل له الناس قياما فليتبوأ مقعده من النار) ، ثم أطلق على الكلام البليغ الشائع الحسن المشتمل إما على تشبيه بلا شبيه ، أو استعارة رائقة تمثيلية ، أو غيرها ، أو حكمة وموعظة نافعة ، أو كناية بديعة ، أو نظم من جوامع الكلم الموجز ، ولا يشترط فيه أن يكون استعارة مركبة ، خلافا لمن وهم ، بل لا يشترط أن يكون مجازا ، وهذه أمثال العرب أفردت بالتآليف ، وكثرت فيها التصانيف ، وفيها الكثير مستعملا فى معناه الحقيقى ...[4] .

التمثيل والتصوير :

استوقفنى ما وجدته من مجئ كلمة التصوير فى كلام الإمام الرازى مقترنة

---

(١) التفسير الكبير ١٤ ، ١ / ٢٦٤ – ٢٦٥ .

(٢) ينظر التعبير الفنى فى القرآن / ٢٣٤ – ٢٣٥ .

(٣) توفى الألوسى عام ١٣٤٢ هـ ينظر الأعلام ، للزركلى ٨ / ١٧٢ .

(٤) روح المعانى ١ ، ١ / ١٦٣ .

بكلمة التمثيل فى بعض المواضع ، وقد حاولت معرفة سر وجودها ، وهل يومى ذلك إلى فرق بين التمثيل والتصوير ؟

وقد بدا لى أنه ذكرها في هذا الموضع ، لأن التمثيل فيه بأمر مفروض لا وجود له فى عالم الواقع ، فقد ذكر فى قوله تعالى : ﴿ **وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ﴾ [آل عمران : ١٦١] .

وجهين : أحدهما أن يقال : ليس المقصود منه ظاهره ، بل المقصود تشديد الوعيد على سبيل التمثيل ، والتصوير ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ **إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ** ﴾ [لقمان:١٦] . فإنه ليس المقصود نفس هذا الظاهر ، بل المقصود إثبات أن الله تعالى لا يعزب عن علمه وعن حفظه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، فكذا ههنا المقصود تشديد الوعيد ... (١) .

وسرعان ما وجدته يعتبر ما جاء فى آية أخرى مناظرة للآية السابقة – تمثيلا، لا تصوير معه ، فذكر فى قوله تعالى : ﴿ **وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ...** ﴾ [آل عمران : ١٨٠] .

أقوالا أحدها «أن قوله : ﴿ **سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ** ﴾ أى سيلزمون إثمه فى الآخرة، وهذا على طريق التمثيل ، لا على أن ثَمَّ أطواقا ، يقال منه : فلان كالطوق فى رقبة فلان ، والعرب يعبرون عن تأكيد إلزام الشئ بتصييره في العنق، ومنه يقال : قلدتك هذا الأمر ، وجعلت هذا الأمر فى عنقك ... (٢) .

وقد ذكر كلمة (تصوير) فى موضع آخر ، وهو يتكلم عن الأمثال عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **... وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** ﴾

[إبراهيم : ٢٥]

---

(١) التفسير الكبير ٥ ، ١/ ٧٥ .

(٢) المصدر نفسه ٥ ، ١/ ١١٩ .

فقال : « . . . والمعنى : أن فى ضرب الأمثال زيادة إفهام ، وتذكير ، وتصوير للمعانى ، وذلك لأن المعانى العقلية المحضة لا يقبلها الحس ، والخيال ، والوهم ، فإذا ذكر ما يساويها من المحسوسات ترك الحس ، والخيال ، والوهم تلك المنازعة ، وانطبق المعقول علي المحسوس ، وحصل به الفهم التام ، والوصول إلى المطلوب[1] » .

وذكر كلمة (تصوير) أيضًا عند إبراز المعانى المعقولة فى صور محسوسة ، فقال عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ** ﴾ [الأنبياء : ١٨] .

« . . . فأما قوله تعالى : ﴿ **بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ** ﴾ فاعلم أن قوله : (بل) إضراب عن اتخاذ اللهو ، واللعب ، وتنزيه منه لذاته ، كأنه قال : سبحاننا أن نتخذ اللهو واللعب ، بل من عادتنا ، وموجب حكمتنا أن نغلب اللعب بالجد ، وندحض الباطل بالحق ، واستعار لذلك القذف ، والدمغ تصويرا لإبطاله ، فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة مثلا قذف به على جرم رخو فدمغه[2] .

ويبدو من كلامه الآنف الذكر أن التصوير عنده ليس مرادفا للتمثيل ، وإنما هو نوع منه ، يمكن أن يأتى في موطنين :

أحدهما : عند ضرب الأمثال بالأمور المفروضة التى لا يراد ظاهرها .

والثانى : عند إبراز المعانى المعقولة فى صور محسوسة ، ويتأتى هذا فى التشبيهات التى يشبه فيها المعقول بالمحسوس ، والاستعارة التى يكون فيها تصوير للمعانى العقلية ، بصور حسية .

الاستعارة بالكناية :

لم يذكر الإمام الرازى فى تفسيره مصطلح الاستعارة بالكناية ، بل كان يكتفى بالإشارة إلى أنها استعارة ، جريا على عادته التى ألفناها فى أنواع الاستعارة

---

(١) المصدر نفسه ١٠ ، ١/١٢٣ . (٢) المصدر نفسه ١١ ، ٢/١٤٧ – ١٤٨ .

الأخرى على الرغم من أنه أول من أطلق عليها هذا المصطلح ، يقول الأستاذ الدكتور محمد أبو موسى : « . . اصطلاح الاستعارة بالكناية لم يعرف إلا في كتاب (نهاية الإيجاز) وهو كتاب كتب بعد الكشاف بما يقرب من قرن . . »[١] .

وإذا ما أردنا أن نقف على رأيه في هذه الاستعارة ، فإننا يمكن أن نتبين ملامحه عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ** ﴾ [الإسراء : ٢٤]

فقد ذكر فى إضافة الجناح للذل وجهين فقال : « . . . فإن قيل كيف أضاف الجناح إلي الذل ، والذل لا جناح له ؟ قلنا : فيه وجهان : الأول : أنه أضيف الجناح إلي الذل كما يقال : حاتم الجود ، فكما أن المراد هناك حاتم الجواد ، فكذلك ههنا المراد واخفض لهما جناحك الذليل أي المذلول ، والثانى : أن مدار الاستعارة على الخيالات ، فههنا تخيل للذل جناحا ، وأثبت لذلك الجناح خفضا[٢] تكميلا لأمر هذه الاستعارة كما قال لبيد :

. . . . . إذ أصبحت بيد الشَّمال زمامها [٣] .

فأثبت للشمال يدا ، ووضع زمامها فى يد الشمال . . . [٤] .

وقبل أن أعرض للاستعارة بالكناية ، أود أن أذكر ملاحظة حول إضافة الجناح إلى الذل ، وهى أن التعبير بخفض الجناح جاء فى القرآن الكريم عند طلب التواضع من رسول الله ﷺ للمؤمنين فى قوله تعالى : ﴿ **وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الحجر : ٨٨] .

---

(١) البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى ١ / ٤١٦ ونهاية الإيجاز / ٩٢ .

(٢) فى التفسير (ضعفا) وقد رجعت إلي طبعة المطبعة الخيرية فوجدت هذه الكلمة (ضعفا) أيضاً ٥ / ٣٨٦ والصواب ما أثبته ، ولعله خطأ من النساخ .

(٣) هذا عجز بيت : وصدره : وغداة ريح قد وزعت وقرة . كما فى شرح المعلقات السبع للزوزنى / ١٣١ وفى أسرار البلاغة : وغداة ريح قد كشفت . . / ٣١ والظاهر أن للبيت روايتين .

(٤) لعل الأدق أن يقال : ووضع زمام الريح فى يد الشمال ، كما فى غرائب القرآن . . . للنيسابورى ١٥ / ٢٧ التفسير الكبير ١٠ ، ٢ / ١٩٢ .

وقوله سبحانه : ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

[الشعراء : ٢١٥]

وعند طلب التواضع من الأبناء لوالديهم فى الآية التى نحن بسبيلها ، ولم يضف الجناح للذل إلا عند طلب التواضع من الأبناء لوالديهم .

ولعل فى هذا – والله أعلم بمراده – إشارة إلي أن تواضع الأبناء لأبويهم ، ليس تواضعا من رفعة ، بل تواضع يتسم بالخشوع ، والخضوع ، والذلة ، والانكسار ، ومن أحق بهذا منهما ؟

ونعود للكلام عن الاستعارة بالكناية ، فنلاحظ أن الإمام الرازى أخذ الوجهين اللذين ذكرهما في (جناح الذل) من الكشاف [١] .

وزاد عليه حديث الاستعارة ، وتخيل الجناح للذل ، وإثبات الخفض لذلك الجناح .

وواضح من كلام الإمام الرازى أنه يقصد من تخيل الجناح للذل – الاستعارة التخيلية التى هى قرينة المكنية ، يدل على ذلك أنه قال فى (نهاية الإيجاز) : « . . . إثبات الجناح للذل استعارة تخييلية » [٢] .

وهو أول من سمى الاستعارة التخييلية باسمها أيضًا [٣] .

ويفهم من كلامه أن الذل مشبه بطائر محذوف ، رمز إليه بشئ من لوازمه، وهو الجناح ، وهذا ما يعرف برأي السلف [٤] أو رأى الجمهور فى الاستعارة بالكناية ، ويقابله رأي السكاكى ، ورأى الخطيب القزوينى فى هذه الاستعارة .

وقد جلى الإمام الرازى رأيه فيها فى (نهاية الإيجاز) فذكر أنها تكون : إذا لم يصرح بذكر المستعار ، بل ذكر بعض لوازمه تنبيها به عليه ، كقول أبى ذؤيب :

---

(١) الكشاف : ٢ / ٣٥٧ .
(٢) نهاية الإيجاز / ١٠٢ .
(٣) ينظر الفخر الرازى والبلاغة العربية / ٢٠٢ .
(٤) ينظر المطول / ٣٨٢ .

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

فكأنه حاول استعارة السبع للمنية ، لكنه لم يصرح بها ، بل ذكر لوازمها تنبيها بها على المقصود [١] .

وقد لاحظت أنه لم يذكر فى كتابه البلاغى المذكور ، ولا عند حديثه عن (جناح الذل) فى التفسير أن لازم المشبه به المحذوف مثبت للمشبه المذكور فى الكلام صراحة حتى يكتمل رأي السلف في الاستعارة بالكناية بكل جوانبه ، ولكنى وجدت من كلامه في بعض المواضع من تفسيره ما يعتبر تكميلا لهذا الرأى ، فقد قال فى قوله تعالى : ﴿ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ ﴾ [المؤمنون : ٦٢] .

« واعلم أنه تعالى شبه الكتاب بمن يصدر عنه البيان . . . » [٢] .

وعلي الرغم من أنه لم يذكر صراحة أن فى تلك الآية استعارة ، أو مجازا إلا أن مضمون كلامه مشعر بأنها استعارة بالكناية .

وهذا الكلام صريح فى أن المشبه مذكور ، وهو الكتاب ، والمشبه به محذوف ، وهو الإنسان ، وبدهى أن النطق من لوازم الإنسان ، وخصائصه ، وقد أثبت هنا للكتاب .

وحينئذ يتأتى لنا أن نعتبر الإمام الرازى من السلف الذين يرون أن الاستعارة بالكناية هي لفظ المشبه به المحذوف الذى رمز إليه ببعض لوازمه ، وإن كان الدسوقى يرى أن المراد بهم صاحب الكشاف ، ومن قبله ، ومن معه [٣] استنباطا من تمثيل سعد الدين التفتازانى بكلام صاحب الكشاف فى تلك الاستعارة [٤] .

وإذا كان القول بهذا الرأي ، والتقدم الزمنى أساس تلك السلفية ، فإن الإمام الرازى جدير بها ، بل لا أبالغ إذا قلت : إنه أجدر بها من الزمخشرى ؛ لأن

---

(١) نهاية الإيجاز / ٩٢ . (٢) التفسير الكبير ١٢ ، ١ / ١٠٩

(٣) حاشية الدسوقي ٤ / ١٥٩ شروح التلخيص . (٤) المرجع نفسه ، والموضع .

الفاصل الزمنى بينهما ليس طويلا [1] ولأن الإمام الرازى هو الذى حدد مدلولها، وأطلق عليها اسمها الذى عرفت به بين البلاغيين – كما أشرت إلي ذلك آنفا – .

والزمخشرى وإن كان أسبق منه زمنا إلا أنها لم تكن معروفه باسمها فى زمانه [2] .

وقد فهم بعض علماء البلاغة رأيه فى تلك الاستعارة عن طريق الاستنباط من كلامه فى الكشاف – كما سيجئ قريبا – .

الاستعارة التخييلية :

أما رأيه فى الاستعارة التخييلية ، فيظهر من كلامه – الذى سبق – أنه يرى أنها إثبات لازم المشبه به المحذوف للمشبه المذكور .

لكنا نتساءل هل يبقى هذا اللازم عنده على معناه الوضعى دائما ، أو أنه يمكن أحيانا – أن يكون مجازا ؟ .

وقبل أن أجيب عن هذا التساؤل أشير إلي أن الزمخشرى قال فى قوله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ ...** ﴾ [البقرة : ٢٧] .

« ... فإن قلت : من أين ساغ استعمال النقض فى إبطال العهد ؟ قلت : من حيث تسميتهم العهد بالحبل على سبيل الاستعارة لما فيه من ثبات الوصلة بين المتعاهدين ... وهذا من أسرار البلاغة ، ولطائفها أن يسكتوا عن ذكر الشئ المستعار ، ثم يرمزوا إليه بذكر شئ من روادفه ، فينبهوا بتلك الرمزة على مكانه ، ونحوه قولك : شجاع يفترس أقرانه ، وعالم يغترف منه الناس ... [3] .

وقد فهم العلامة سعد الدين التفتازانى من ذلك القول أن لازم المشبه به لا يجب أن يكون مستعملا فى معناه الوضعى دائما ، وفي جميع أحواله ، بل قد يكون استعارة ، فقد أورد كلامه السابق .

---

(١) توفى الزمخشرى عام ٥٣٨ هـ والإمام الرازى عام ٦٠٦ هـ .

(٢) ينظر البلاغة القرآنية في تفسير الكشاف / ٤١٦ .

(٣) الكشاف / ١ / ٥٨ .

وعلق عليه قائلا : ... هذا كلامه ، وهو صريح فى أن المستعار هو اسم المشبه به المتروك صريحا ، المرموز إليه بذكر لوازمه ، لكنا قد استفدنا منه أن قرينة الاستعارة بالكناية لا يجب أن تكون استعارة تخييلية ، بل قد تكون تحقيقية ، كاستعارة النقض لإبطال العهد [١] .

وقد تكلم الشهاب الخفاجى عن الاستعارة فى ﴿ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ ﴾ بعد أن نقل كلام الزمخشرى فيها ، ثم قال : « ... وههنا قد سكت عن الحبل ، ونبه عليه بذكر النقض ، حتى كأنه قيل : ينقضون حبل الله ، أي عهده ، والنقض استعارة تحقيقية تصريحية حيث شبه أبطال العهد بإبطال تأليف الجسم ، وأطلق اسم المشبه به على المشبه ، لكنها إنما جازت ، وحسنت بعد اعتبار تشبيه العهد بالحبل بهذا الاعتبار صارت قرينة على استعارة الحبل للعهد ، وبهذا ظهر أن الاستعارة المكنية قد توجد بدون التخييلية ، وأن قرينتها قد تكون استعارة تحقيقية [٢] .

وبناء على ما فهم من كلام الزمخشرى ، فإنه يكون قد خالف القوم فى أنه جوز أن تكون قرينة الاستعارة المكنية استعارة تخييلية [٣] .

وهنا نأتى إلي الإجابة عن التساؤل السابق : هل يرى الإمام الرازى أن لازم المشبه به مستعمل فى معناه الوضعى دائما أسوة بالقوم ، أو أنه يجوز أن يكون مستعارا لشئ آخر مثل ما يرى الزمخشرى ؟ وأول ما يلقانا فى تلك الإجابة أن الدكتور محمد جلال الذهبى توصل فى هذا الشأن إلي أن الإمام الرازى يرى أن الاستعارة المكنية ، والتخييلية متلازمتان لا تنفك إحداهما عن الأخرى ، وأن الاستعارة التخييلية ليس فيها نقل للفظ عن موضعه [٤] .

---

(١) المطول / ٣٨٣ .
(٢) حاشية الشهاب ٢ / ١٠٤ .
(٣) ينظر حاشية الدسوقى ٤ / ١٥٩ شروح التلخيص .
(٤) ينظر الفخر الرازى والبلاغة العربية / ٢٠٢ وما بعدها .

وقد تبين لى من تتبع كلام الإمام الرازى ، والوقوف أمامه طويلا أن رأيه يلتقى مع رأي الزمخشرى فى تلك القضية ، ويتكون رأيه من وجهين :

أحدهما : أن لازم المشبه به قد يكون باقيا على معناه الوضعى ، فتكون قرينة المكنية استعارة تخييلية ، فقد قال عند تفسير قوله تعالى : ﴿ ... **فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ** ﴾ [الكهف : ٧٧] .

« .. فإن قيل كيف يجوز وصف الجدار بالإرادة ، مع أن الإرادة من صفات الأحياء ؟ قلنا : هذا اللفظ ورد على سبيل الاستعارة وله نظائر من الشعر قال :

يريد الرمح صدر أبى براء ويرغب عن دماء بنى عقيل

وأنشد الفراء :

إن دهرا يلف شملى بِجُمْلٍ[1] لزمان يهم بالإحسان[2]

وقال الراعى :

فى مَهْمَهٍ قلقت به هاماتها قلق الفئوس إذا أردن نصولا

ونظيره من القرآن قوله تعالى : ﴿ **وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ** ﴾ » [الأعراف : ١٥٤][3]

فقد أبقى فى آية الكهف الإرادة علي معناها الأصلى ، وجعلها مستعارة للجدار .

---

(١) فى التفسير (بجمعل) بعين بعد الميم ، وهذا خطأ ، والصواب ما أثبته ؛ لأننى وجدته فى معانى القرآن ، للفراء على صورته المذكورة فى أعلى الصفحة ٢ / ١٥٦ .

(٢) لاحظت أن الإمام الرازى أورد هذا البيت في (نهاية الإيجاز) هكذا :

إن دهرا يلف شملى بسعدى : (البيت) / ١٤٩ .

باستبدال سعدى بجمل ، خلافا لما ذكره في التفسير ، ومعلوم أنه فى (نهاية الإيجاز) كان يأخذ عن الشيخ عبد القاهر ، فذكر البيت كما هو فى دلائل الإعجاز / ٣٢٠ .

أما فى التفسير ، فقد أخذه عن الفراء ، فجاء بصورة أخرى .

(٣) ينظر التفسير الكبير ١١ ، ١ / ١٥٨ .

وواضح من هذا أنها استعارة تخييلية ، جعلت قرينة للاستعارة المكنية فى الإنسان المحذوف الذى رمز إليه بشئ من لوازمه ، وهو الإرادة ، ومثل هذه الآية ما ذكره فى (جناح الذل) فقد أثبت الجناح للذل ، وهذا الإثبات استعارة تخييلية – كما سبق – قد أبقى فيها الجناح على معناه الوضعى .

والثانى : أن لازم المشبه به قد يكون استعارة تحقيقية كما فهم من كلام الزمخشرى فى قوله تعالى : ﴿ **يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ** ﴾ .

وقد ظهر لي هذا المعنى من كلام الإمام الرازى عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ** ﴾ [المؤمنون : ٦٢] .

فقد قال : «قوله : ﴿ **وَلَدَيْنَا كِتَابٌ ...** ﴾ ونظيره قوله : ﴿ **هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ** ﴾ [الجاثية : ٢٩] ... واعلم أنه تعالى شبه الكتاب بمن يصدر عنه البيان ، فإن الكتاب لا ينطق ، لكنه يعرب بما فيه ، كما يعرب ، وينطق الناطق إذا كان محقا ... [١]

فلم يبق لازم المشبه به ، وهو النطق علي معناه الأصلى ، وهو التكلم [٢] بل جعله مستعارا للإعراب ، والإبانة .

وحينئذ تكون قرينة المكنية استعارة تحقيقية ، وليست تخييلية ، ولعلى بعد هذا أستطيع القول : بأن الاستعارة المكنية ، والتخييلية عند الإمام الرازى ليستا متلازمتين ، بل قد تأتى المكنية دون التخييلية ، وأن لازم المشبه به يمكن أن ينقل عن وضعه الأصلى ، فيكون مجازا .

وقد يستأنس لهذا الفهم بأنه لم يتكلم عن الاستعارة المكنية ، والاستعارة التخييلية فى كتابه (نهاية الإيجاز) فى موضع واحد ، كما كان متوقعا ، بل تكلم عن التخييلية بعد المكنية بعدة صفحات [٣]

---

(١) المصدر نفسه ١٢ ، ١/١٠٩ . (٢) ينظر أساس البلاغة مادة (نطق) .

(٣) تكلم عن المكنية في صفحة / ٩٢ وعن التخييلية فى صفحة / ١٠٢ .

ولو كانتا متلازمتين عنده لجعلهما متجاورتين فى كتابه .

وقد وجد الاتجاه إلي عدم التلازم بينهما قبولا لدى بعض البلاغيين بعد ما فهمه العلامة سعد الدين من كلام صاحب الكشاف ، فقد ذكر السيد الشريف أن الاستعارة التخييلية تكون باقية على معناها الحقيقى إذا لم يكن للمشبه المذكور تابع يشبه رادف المشبه به كمخالب المنية ، وأظافرها وإن كان له تابع يشبه ذلك الرادف كان مستعارا لذلك التابع على طريق الاستعارة التصريحية[1] . وحينئذ لا تكون قرينة الاستعارة المكنية استعارة تخييلية .

وأشار الشهاب الخفاجى ، وهو يوجه كلام سابقيه فى قوله تعالى : ﴿ **وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ** ﴾ [الأعراف : ١٥٤] .

إلى أن الغضب يمكن أن يكون استعارة بالكناية عن الشخص الناطق والسكوت استعارة تصريحية لسكون هيجان الغضب ، فتكون مكنية قرينتها تصريحية ، لا تخييلية ، ويمكن أن يكون السكوت باقيا على معناه الأصلى، فتكون قرينة المكنية استعارة تخييلية [2] .

* * *

---

(١) ينظر حاشية السيد الشريف على المطول / ٣٨٥ على هامش المطول .

(٢) ينظر حاشية الشهاب ٤ / ٢٢٢ .